إنّ اللّه عزّ وجلّ وحده ، هو الّذي أرسل الرّياح بين يدي المطر مشعرة في لطفٍ بأنّ رحمة اللّه تعالى قريبٌ من القوم كي يستعدّوا لنزول المطر والعمل على الانتفاع به وتجنب ما يمكن أن يحصل بسببه من ضرر . وفي إمكاننا أن ندرك قيمة هذه المقدّمة المؤذنة بقرب نزول المطر حينما نتخيّل أنّها غير موجودة وأنّ المطر ينزل دون سابق إشعار . إنّ حصول الضّرر في هذه الحال ممكن ، وخاصّةً بشأن الفئة من النّاس الّتي تعنيها بالدّرجة الأولى الآيتان الكريمتان ، وهي الفئة الموغلة في أعماق الصّحارى والبلاد ، والّتي تعتمد على الغيث اعتماداً كُلّيّاً أو شبه كلّيّ . ولا ننسى أنّ هذه الفئة تمثّل الغالبيّة العظمى من سكّان الجزيرة العربيّة في أثناء نزول القرآن الكريم على النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم بلسانٍ عربيّ مبين .

وحيث إنّ اعتماد القوم على المطر أساسيّ ، إذ يعتبر المصدر الحقيقيّ للرّزق ، فبه ينمو النّبات الّذي تأكله الماشية فينعم القوم بألبانها ولحومها . لذا كانت فرحة القوم غامرةً بنزول المطر وبالرّياح بين يديه المبشّرات بقرب نزوله . إنّها رياح مبشّرات للقوم فعلاً بالمطر الّذي قد يرتبط بنزوله بعض الأضرار البسيطة ، ولكنّها لا تكاد تقف لقليلٍ من نفع المطر الغامر . ومن هنا قيل عن الرّياح إنّها مبشّرات بين يدي رحمته عزّ وجل ، ومن هنا قيل عن المطر ذاته إنّه رحمةٌ من اللّه تعالى بعباده ، والمعروف أنّ المطر ، وهو رحمة ، وليد مجموعةٍ من الرّياح، وقد نبّهت الآية الكريمة على ذلك .

وكيف لا تكون الرّياح مبشّرات ، وهي الّتي تحمل أجمل الأنباء بقرب هطول المطر ، عصب الحياة من السّماء ، وكيف لا يكون الماء الهاطل من السّماء مظهراً من مظاهر رحمته عزّ وجلّ بعباده وهم

الّذين يعتمدون في حياتهم على الماء اعتماداً كلّيّاً لـدرجة أنّـه لو أخلف أو تأخّر ، ربّمـا اضطرّوا لمغـادرة بلادهم بحثـاً عن منابت الكـلأ وتتبُّعاً لمظانّ هطول الأمـطار . وحينما يختصّهم اللّه تعـالى بنزول مـاء السّماء عليهم فإنّ ذلك رحمة حقيقة من اللّه تعالى بهم ، ونعمةٌ من أجـلّ النّعم عليهم ، إذ تتحوّل أيّامهم أعياداً .

وتأمَّل الصّفة الّتي تستعملها الآية الكريمة في حق الماء ، إنّه ماءٌ مبالغٌ في طهارته فهو ماء طهورٌ ، أي طاهرٌ في نفسه مطهّرٌ لغيـره . وبما أنّ الإنسـان هو الّـذي يحتاج في الـدّرجة الأولى لهـذا النّـوع من المـاء العذب ، فإنّ اختيار صفة الطّهور للماء ، دون سائر الصّفات الأخرى ، دليلٌ على أنّ الإنسان هو المقصود هنا أساسـاً . ولا شكّ أنّ هـذا مظهـرٌ من مـظاهر تكـريم اللّه تعالى لـلإنسـان الّـذي خلقـه بـارئـه في أحسن تقـويم ، كي يكون خليفـة في ألأرض ، يعبد اللّه تعـالى حقّ عبادتـه ، مستعيناً بذلك الماء الطّهور على العبادة ، شرباً وطهارةً ووضـوءاً وغُسْلاً وما إلى ذلك .

إنّ الفئة من النّاس الّـذين تعنيهم الآيتان الكـريمتان أسـاساً ، هم أولئك الّذين يعتمدون على المطر في حياتهم الرّعـويّة أوّلاً ، الـزّراعيّة ثانياً . وبما أنّ الماء النّازل من المزن هـو الّذي يشغـل بال القـوم لقيام مصالحهم المعيشيّة عليه ، لذا تقدمت الإشارة إلى احيـاء الماء الـطّهور البلدة الميت على غيـره من المنافـع . إنّ في إمكـان القـوم أن يتّجهـوا بمـواشيهـم إلى بعض مـظانّ الميـاه كي يحملوا منـه مـا شـاءوا ويسقـوا أنعامهم . ولكن كيف العمل بشأن طعام الأنعام الّتي لا تستطيع أن تحيا بـدونه ، والّـذي يعتمد مبـاشرة على ميـاه الأمطار . إنّ إحسـاس القـوم بحاجة الأرض الميتة إلى ماء السّماء يتقدّم الإحساس بحاجتهم وحـاجة

أنعامهم إليه . وهذا ما نصّت عليه الآية الكريمة بتقديمها الإشارة إلى هذه الحقيقة على غيرها .

وإذا كانت الأرض الميتة أشدّ حاجة لماء السّماء كي تربو بالنّبات السّريع النّماء الّذي تحتاجه الماشية ، فإنّ هذه الماشية ، الّتي تحتاج إلى كمّيات من الماء كبيرة ، تستطيع أن تجد غايتها في ذلك الماء النازل من السّماء مباشرة . بينما يحتاج الإنسان الى شيء من معالجة لذلك الماء كي يكون صالحاً للشُّرب ، وربّما آثر أن يحصل على نصيبه من ذلك الماء بطريق ملائم لحاجاته ، كأن يؤثر أخذ نصيبه من الماء بعد أن تحوّل عيناً جاريةً أو بئراً ثرَّة مفعمة . لقد أوحى تقديم الآية الكريمة للأنعام ، وتأخيرها للأناسيّ في الذّكر ، بكلّ هذه الملابسات . وإنّ واجب الإنسان أن يقوم بالشّكر للّه تعالى الّذي مَنّ عليه بنعمة العقل الّذي يجعله يحسن الانتفاع من كلّ ما رزقه اللّه تعالى . فهل قام الإنسان بواجبه تجاه خالقه ؟ قال عزّ من قائل[1] : ﴿ وقليلٌ من عبادي الشّكور ﴾ .

ونستطيع أن نقول إنّ تأخير ذكر الأناسيّ من مظاهر تكريم اللّه تعالى للإنسان . إذ يوحي هذا التأخير بأنّ الإنسان يمثّل قمّة مخلوقات اللّه تعالى . يبدو ذلك جليّاً حينما نتبيّن أنّ المخلوقات قد جاءت في السّياق وفق هذا النّسق من التّرقي . الجماد ، النّبات ، الحيوان ثمّ الإنسان .

ولعلّنا فطنّا إلى أسلوب الالتفات في الآيتين الكريمتين ، وهو بطبعه يشدّ الانتباه شداً ، فكيف إذا أضيف إلى الالتفات من ضمير

---

(١) سورة سبأ ، ١٣ .

الغـائب إلى ضمير المتكلّم الأقـوى ، التّحـوّل من المفـرد إلى ضمير الجماعة العـائد إلى الفعّـال لما يـريد القـادر على كـلّ شيء الّـذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء . قال تعالى : ﴿**وهو الّذي أرسل الرّياح بُشْراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً * لنحيي به بلدةً ميتاً ونسقيه ممّا خلقنا أنعاماً وأناسيّ كثيراً**﴾ .

القرآن الكريم والرّسول العظيم :

عـرفنا أنّ الغـاية البعيـدة من تعداد نعم اللّه تعـالى حمـل العبـاد على الشّكـر لله تعـالى على نعمـه وآلائـه ويكـون ذلـك بعبـادتـه عـزّ وجـلّ وحـده لا شـريـك لـه . وقـد جـرت العـادة بـأن تكـون الإشـارة إلى إحياء اللّه تعـالى للأرض الميتـة وسيلة للفطنـة إلى قدرتـه عـزّ وجلّ على إعـادة الحيـاة إلى عـظام الإنسـان يـوم القيـامـة بعـد أن غدت رميماً وينبغي أن تكون هذه الغاية من أهـداف الآية الكـريمة الّتي تتحدّث عن إحياء اللّه تعالى الأرض الميتة بـإنزال المـطر عليها . جـاء في سورة الأعراف[1] مثلاً قوله تعالى : ﴿ **وهو الّذي يرسل الرّياح بُشراً بين يدي رحمته حتّى إذا أقلّت سحـاباً ثقـالاً سقناه لبلد ميّتٍ فـأنزلنـا به المـاء فـأخـرجنـا بـه من كـلّ الثّمـرات كـذلـك نُخـرج المـوتى لعلّكم تذكّرون** ﴾ . وإذا كـان إحياء الأرض الميتـة ، بقصد لفت الانتبـاه إلى قدرة اللّه تعالى على إعادة الحياة للمخلوقات يوم القيامة يتمّ عن طـريق نعمةٍ من نعم اللّه تعالى وآية من آياته ، فينبغي أن يكون للنّفـوس الميتة نصيبها من الإحياء . ولمّا كان إحياء النّفوس يحتاج إلى أكبر المجهـود ، فقـد تمّ ذلك من أقصـر الـطّرق ، عن طـريق آيـة اللّه تعـالى الكبـرى

(١) آية ، ٥٧ .

ومعجـزة الإسلام الخـالدة ، ألا وهـو القرآن الكـريم ، الّـذي نـزل في أسمى طرق الوحي ، على محمّـد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليـه وسلّم ، والّذي تمّ انتقال الحديث إليه ، ثمّ إنّه يشكّل أحـد موضـوعات السّـورة الرّئيسية ، كيف لا وإنّ السّورة الكريمة تسمّى بالفرقان ، إحـدى صفات القرآن الكريم ، فمع الآيات الكـريمة الّتي تتحـدّث عن القرآن الكـريم وتصـريف اللّه تعالى القـول فيه وانصـراف أكثر النّـاس عنه وكـونه أكبـر سـلاحٍ يجاهـد الرّسـول العظيم بـه الكافـرين ، قال تعـالى : ﴿ **ولقـد صرّفناه بينهم ليذّكّروا فأبى أكثر النّاس إلاّ كفوراً * ولو شئنا لبعثنا في كلّ قريةٍ نذيرا * فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً** ﴾ .

اختلف العلمـاء بشـأن الآيـة الكـريمـة الأولى ، وبخـاصّـةٍ جملة «صرّفناه » قال تعالى : ﴿ **ولقد صرّفناه بينهم ليذّكروا فأبى أكثر النّاس إلاّ كفـوراً** ﴾ . فمنهم من ذهب إلى أنّ الضّمير يعـود إلى القرآن الكـريم ، مع العلم بأنّ الإشارة الصّريحة إليه ليست موجودة ، هـذا بالإضـافة إلى أنّ أقرب إشارة صريحة للقرآن جاءت قبل العديد من الآيات . والمـراد بتصريف القرآن الكـريم تنويعـه من وعْد ووعيـد وحِكم وأمثال وقصص ووصف وما إلى ذلك . ومنهم من ذهب إلى أنّ الضّمير يعود إلى المـاء الطّهور الّذي أنزله اللّه تعالى من المزن . والمراد تصريف المطر بينهم في البلدان المختلفـة والأوقات المتغـايـرة وعلى الصّفـات المتفـاوتـة . ونحن نرجّح أنّ الحديث هنا عن القرآن الكريم وليس عن المـاء . وإذا كان الضّمير من صرفّناه لا يعود إلى قريب فإنّه يعود إلى معروف . وثمّة أسبابٌ خلف هذا التّرجيح .

(١) حينما نقارن بين القرآن الكريم من نـاحية وبين المـطر الّذي أنزله اللّه تعـالى من السّماء من نـاحيةٍ أخـرى ، من حيث القدرة الأكبـر

والأسهل على التّذكير ، فإنّا ننتهي بساطة إلى أنّ ذلك من نصيب القرآن الكريم الّذي يسّره ربّ العزّة للذّكر .

(٢) حينما نقارن بين القرآن الكريم من ناحية ، وبين المطر من ناحية أخرى ، من حيث القابليّة الأكثر للتصّريف وبالتّالي التّذكير ، فإنّا ننتهي أيضاً إلى أنّ ذلك من نصيب القرآن الكريم . وبهذه المناسبة نقرّر أنّه ليس ثمّة إشارةٌ واحدةٌ في القرآن الكريم إلى تصريف المطر ، إنّما هناك إشارةٌ واحدة في سورة النّور(١) إلى صرف اللّه تعالى المطر أو السّحاب عمّن يشاء . وثمّة إشارتان في سورة البقرة(٢) وسورة الجاثية(٣) إلى تصريف اللّه تعالى للرّياح وليس للمطر أو السّحاب . بينما الإشارات كثيرةٌ إلى تصريف اللّه تعالى الآيات ، ومنها ما جاء فيه النّصّ الصّريح على القرآن الكريم . وهذه هي مواضع ذلك . جاء في سورة الإسراء(٤) قوله تعالى : ﴿ **ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليذّكّروا** ﴾ وقوله في الإسراء ايضاً(٥) : ﴿ **ولقد صرّفنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثل** ﴾ وقوله تعالى في سورة طه(٦) : ﴿ **وكذلك أنزلناه قرآناً عربيّاً وصرفنا فيه من الوعيد** ﴾ وبناءً على ذلك نحن نرجّح أن نلحق بهذه المجموعة من الآيات الآية الكريمة الّتي نحن بصددها من الفرقان . قال تعالى : ﴿ **ولقد صرّفناه بينهم ليذّكّروا فأبى أكثر النّاس إلاّ كفوراً** ﴾ .

---

(١) آية ، ٤٣ .
(٢) آية ، ١٦٤ .
(٣) آية ، ٥ .
(٤) آية ، ٤١ .
(٥) آية ، ٨٩ .
(٦) آية ، ١١٣ .

(٣) حينما نذهب إلى أنّ عودة الضمير في قوله تعـالى : ﴿ **ولقد صرّفناه بينهم** ﴾ إلى القرآن الكريم ، المفهوم ضمناً ، فمـا ذلك إلاّ لأنّ التّحـوّل من المحسوس إلى المـعنـويّ ،لوجـود قرينـةٍ تهيىء لـذلـك ، مظهرٌ من مظاهر الإعجاز القرآني . فليست هذه هي المرّة الـوحيدة الّتي يتمّ فيها التّحوّل من المادّيّ إلى المعنويّ ، وإليك هذا المثال الآخر من سـورة النَّحل[١] الّـذي يتمّ فيه ، التَّحـوّل من لفظة سبيـل المحسـوسـة المتعدّدة حقيقة ، والّتي تسير فيها الأنعـام ، إلى سبيل الهـدى الواحـدة الّتي يهدي اللّه تعالى إليها من يشاء من عباده . قال تعالى : ﴿ **والأنعام خلقهـا لكم فيها دفءٌ ومنـافع ومنهـا تأكلون * ولكم فيهـا جمـالٌ حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلاّ بشقّ الأنفس ، إنّ ربّكم لـرءوفٌ رحيم * والخيـل والبغـال والحميـر لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تـعلمون * وعلى اللّه قصد السَّبيل ومنها جـائرٌ ولو شـاء لهـداكم أجمعين** ﴾ . واليـك قـولـه تعـالى في سـورة الأعـراف[٢] : ﴿ **يا بني آدم قـد أنزلنـا عليكم لبـاسـاً يـواري سـوءاتكم وريشـاً ولبـاس التقـوى ذلـك خيـر * ذلـك من آيـات الله لعلهم يذّكّرون** ﴾ .

(٤) حينمـا نتأمّـل هذه الآيـة الكريمـة : ﴿ **ولقـد صـرّفنـاه بينهم ليذّكّروا فأبى أكثر النّـاس إلاّ كفوراً** ﴾ فـإنّا ننتهي إلى أنهـا أكثر لصـوقاً بـالقرآن الكـريم الّـذي يشكّـل واحـداً من مـوضـوعـات هـذه السّـورة الكريمة . لقد هدى اللّه تعالى بالقرآن الكريم ، في فترة قصيرة ، كثيراً من النّاس . أمّا بـالنّسبة للمـطر ، فمع أنّـه ينزل تبـاعاً ، ولا يكـاد يترك

---

(١) آيات ، ٥ ـ ٩ .

(٢) آية ٢٦ .

مكـاناً لا ينـزل فيه ، فـإنّا نستـطيع أن نفهم بـداهة أنّ دوره ، من حيث القدرة على التّذكير ، أقلّ من القرآن الكريم . ومع أنّ أكثر النّاس وقت نزول القرآن الكريم قد أبوا إلاّ كفوراً ، كمـا نصّ على ذلك القـرآن في غير ما موضع ، فإنّ عدد الّذين اتّعظوا بـه وانتفعوا ، بـالقياس إلى عـدد الأنـاسيّ ، لا بأس بـه . وهـو عـددٌ أمكن الحصـول عليـه بسبب قـدرة القرآن الكريم الفائقة على التّذكير . وتـأمّل بعـد ذلك جملة « أبى » من قوله تعالى : ﴿ **فأبى أكثر النّاس إلاّ كفوراً** ﴾ الّتي تعني إصرار الكافرين على العنـاد ، وتوحي بـرفضهم المتعمَّد لـدعوة الخيـر الّتي يسمعـون . وذلك ينطبق على موقف كفّار مكّة من القرآن الكريم والرّسول العظيم ، كما صوّرته هذه السّـورة الكريمـة . ونظنّ ، واللّه أعلم ، أنّ الحـديث هنا لو كان عن المطر الّذي لا تستطيع سوى القلّة القليلة أخذ العبرة منه والـدّليل عليـه ، لاستعملت الآية الكـريمة جملةً أخـرى أقـلّ حـدّةً من جملة أبى ، تتمشّى مـع طبيعـة آيـة المـطر في القـدرة المحـدودة على التّـذكير ، وهي قـدرةٌ تكاد تقتصـر على الفئة المحـدودة المهيّئـة ذهنيـاً للرّبط بين الأسباب والمسبّبات وأخـذ الدّرس من ذلـك ، وبالتّـالي فهي قدرةٌ لا تقاس بقدرة القرآن الكريم المطلقة على التّذكيـر ، حيث إنّ من مـظاهر إعجـاز القرآن الكـريم أن يقرأه فيفهمـه فيأخـذ العبرة منـه أوسع النّاس ثقافة وأقلّهم حظّاً منها ، وهذه حقيقةٌ لاصقةٌ بالقرآن الكريم الّذي يسّـره ربّ العزّة للذّكـر . ويمكن أن نضيف إلى ما سبق أنّ هـذا القول في الآية الكريمة : ﴿ **فأبى أكثـر النّاس إلاّ كفـوراً** ﴾ **يُسْتَعْمَلُ هـو ذاته مرّةً أخرى من القرآن الكريم دليلاً على إعراض النـاس عنه . جـاء في سورة الإسراء**[1] **قوله تعالى** : ﴿ **ولقد صرّفنا للنّاس في هذا القرآن من**

(١) آية ، ٨٩ .

كلّ مثلٍ فأبى أكثر النّاس إلاّ كفوراً﴾ .

(٥) إذا كنّا نذهب إلى أنّ الضّمير من « صرّفناه » في الآية الأولى من هذه المجموعة يعود إلى القرآن الكريم الّذي ذكر من ذي قبل ، والّذي يشكّل واحداً من موضوعات هذه السّورة الكريمة ، فإنّ هذا الضّمير ذاته يجيء في الآية الثّالثة من هذه المجموعة أيضاً في قوله تعالى : ﴿ **وجاهدهم به جهاداً كبيراً** ﴾ عائداً بالإجماع على القرآن الكريم الّذي لم يذكر صراحةً في الآيات الثّلاث . وهذه الحقيقة تدفع ما يبديه البعض من اعتراض بكون الضّمير في « صرّفناه » لو عاد إلى القرآن الكريم لعاد إلى بعيد ، إنّ عدد الآيات الفاصلة بين الضمير في الآية الثالثة ، العائد بالإجماع إلى القرآن الكريم ، أكثر ، بطبيعة الحال ، من عدد الآيات الفاصلة بين الضّمير في الآية الأولى وبين القرآن الذي يعود إليه . فلا مكان للاعتراض إذن بطول الفصل بين الضمير وما يعود إليه .

(٦) حينما ننعم النّظر في عناصر الحديث بشأن الآيات الثلاث في قوله تعالى : ﴿ **ولقد صرفناه بينهم ليذّكّروا فأبى أكثر النّاس إلاّ كفوراً * ولو شئنا لبعثنا في كلّ قرية نذيراً * فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً** ﴾ فإنّا نتبيّن أنّها تدور في ذات المجال الّذي شملته الآيات المتقدّمة من السّورة الكريمة . إنّ هذه الآيات الثّلاث تشير إلى القرآن الكريم الّذي أنزله اللّه تعالى على خاتم الأنبياء والمرسلين وصرّف فيه ضروب القول وفي مقدمتها الوعيد كي يتذكّروا فلم تُجْد الذّكرى ووقفوا من الرّسول الكريم ومن الدّعوة إلى اللّه تعالى موقف الخصم اللّدود . ويأمر اللّه تعالى الرّسول الخاتم بأن يستمرّ في القيام بمهمّة تبليغ الرّسالة الشّاقّة وأن يصبر كما صبر أولو العزم من

الرّسل ويجاهد هؤلاء الكـافرين بـالقرآن الكـريم جهاداً كبيـراً . إنّ هذه المعـاني لا تخرج عن الآيـات المتقدّمـة من السّورة الكـريمة ، بـل إنّ الآيـة الأولى منها خـاصـة ، لتـوحي بـالكثيـر من هـذه المعـاني . قـال تعـالى : ﴿ **تبـارك الّـذي نـزّل الفـرقـان على عبـده ليكـون للعـالمين نذيراً** ﴾ .

(٧) إنّ عودة الضّمير في قـوله تعـالى : ﴿ **ولقد صـرّفناه بينهم** ﴾ إلى القرآن الكريم يجعل هذه الآية الكريمة المربـوطة بسـابقتها بجـامع نـزول المطر والقـرآن من السّماء ، مشـدودةً إلى الآيتين التـاليتين شـدّاً وثيقاً . فإذا كانت الآية الأولى تتحدّث عن القرآن الـكريـم الّـذي أنزلـه اللّه تعالى على خاتم الأنبياء والمرسلين وصـرّف فيه من الـوعيد ويسّـره للذّكر ، ومع ذلك انصرف اكثر النّاس عنه ، فإنّ الآيـة التّاليـة تشير إلى الحكمة في كون حامل الرّسالة الخاتمة واحداً فقط ومعه كتابٌ سمـاويٌّ واحد . كما أنّ الآية الثّالثـة تأمـر الرّسـول الكريم بـأن يجاهـد بالقـرآن الكريم الكافرين ، الّذين عنتهم الآية الكريمة الأولى ،جهاداً كبيراً .

لعلّ فيما سبق مقنعـاً بأنّ الآيـة الكريمـة هذه : ﴿ **ولقـد صرّفنـاه بينهم ليذّكّروا فأبى أكثر النّاس إلاّ كفوراً** ﴾ تتحدّث عن القرآن الكريم بجامع نزولٍ كلٍّ من القرآن الكريم والمطر من السّماء . واللّه تعالى أعلم .

فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة التّـالية : ﴿ **ولـو شئنا لبعثنـا في كلّ قـريةٍ نـذيراً** ﴾ تبيّنـا أنّها تعني أنّ ثمّـة حكمةً في كـون حامـل الرّسـالـة الخاتمة واحداً فقط من الرّسل . فعلى الرّغم من أنّ هذه مهمّة شاقةٌ إلاّ أنّ ربّ العزّة قد هيّأ الرّسول الخاتم كي يكون في مستوى المهمة الّتي سـوف تناط بـه . هذا بـالإضافـة إلى أنّ العنايـة الإلّهية كـانت مع هـذا الرّسول الكريم دائماً . القرآن الكريم ينـزل عليه تبـاعاً يثبّت فؤاده وقـد

عصمه اللّه تعالى من النّاس فلن يستطيعوا أن يمسّوه بسوءٍ أبداً .

إنّ صدر الآية الكريمة : ﴿ **ولو شئنا** ﴾ يذكّرنا بالتّعبير غير البعيد في هذه السّورة في قوله تعالى : ﴿ **تبارك الّذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً** ﴾ . إنّ إرادة اللّه تعالى لم تشأ أن تبعث في كلّ قريةٍ رسولاً ولو شاء لفعل ، وإنّ إرادة اللّه تعالى لم تشأ أن تجعل للرّسول الكريم في الدّنيا جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار أو تجعل له قصوراً . كما يذكّرنا بقوله تعالى عن آية الظّلّ بعد ذلك : ﴿ **ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظّلّ ولو شاء لجعله ساكناً** ﴾ فلم تشأ إرادة اللّه تعالى أيضاً أن تجعل الظّلّ ساكناً .

ونستطيع أن نعقد ببساطةٍ رابطة متينة بين هذه الآية وبين الآية الأولى في السّورة . وكأنّ لفظة العالمين في الآية الأولى بمثابة السّبب أو الحكمة في كونه عزّ وجلّ قد جعل الرّسالة الخاتمة واحدة الرّسول والكتاب وواحدة السّنّة أيضاً . وتأمّل التّعبير في الآية الكريمة : ﴿ **لبعثنا في كلّ قرية نذيراً** ﴾ إنّ التّعبير لم يقل : لبعثنا في كلّ أمّة نذيراً ، على غرار ما جاء في سورة فاطر(1) : ﴿ **وإن من أمّةٍ إلّا خلا فيها نذير**﴾ . لا . إنّ اللّفظة الّتي تُسْتَعْمَلْ هنا هي القرية . وما أكثر القرى في قُطْرٍ واحدٍ من الأقطار . ومع ذلك فما أسهل أن يبعث اللّه تعالى لكلّ قريةٍ رسولاً بشيراً ونذيراً* وكان اللّه على كلّ شيءٍ مقتدراً * لقد أريد للرّسالة الخاتمة أن تكون واضحة المعالم ليلها كنهارها بسبب حفظ اللّه تعالى لكتابه الكريم ، وكون الشّخصيّة المثالية الّتي يحرص المسلمون جهد الطّاقة على محاولة محاكاتها ممثّلة في خاتم الأنبياء والمرسلين .

---

(1) آية ، ٢٤ .

وتأمّل الطّريقة الّتي يتمّ فيها أمره عليه الصّلاة والسّلام بالاستمرار في تبليغ دعوته رغم اعتراض الكافرين عليه . إنّه يتمّ عن طريق نهيه عليه الصّلاة والسّلام المطلق عن طاعة هؤلاء الكافرين ، في كلّ الأحوال بلا استثناء ، مهما يكن اللّون الّذي يظهرون فيه ، والكلام الّذي يسيل من بين شفاههم . إنّهم يا محمّد ، إنّما يفعلون ذلك بقصد أن يفتنوك عن الّذي أوحينا إليك أو عن بعضه ، فخذ حذرك منهم ولا تطعهم مطلقاً ، لأنّهم يتّبعون أهواءهم بل إنّهم يجعلون أهواءهم آلهتهم ، إنّك أيُّها الرّسول الكريم كثيرٌ باللّه تعالى وبكتابه العزيز ، فجاهدهم بهذا القرآن جهاداً كبيراً فإنّ اللّه تعالى مؤيّدك بنصره . هذه هي سنة اللّه تعالى الّتي لا تتبدّل : ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنّهم لهم المنصورون * وإنّ جندنا لهم الغالبون** ﴾[1] .

وإذا كان الرّسول الكريم يُطْلَب إليه قبل الهجرة حينما كان الإسلام غريباً أو كالغريب أن يجاهد الكافرين بالقرآن الكريم ـ الّذي لمّا ينزل كاملاً بعد ـ جهاداً كبيراً ، مهما تكن أعداد الكافرين كبيرة وأنواع كيدهم متعدّدة ، فلا شكّ أنّ هذا الطّلب ينسحب على كلّ الدّعاة الى اللّه تعالى في كلّ زمانٍ ومكان . إنّ جيشهم الأكمل استعداداً وسلاحهم الأمضى نفاذاً ، هو هذا القرآن الكريم الّذي يسّره ربّ العزّة للذّكر وتكفّل بحفظه الى أن يرث اللّه تعالى الأرض ومن عليها . ويفهم من آية الفرقان الكريمة : ﴿ **فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً** ﴾ إن الإسلام كلٌّ لا يقبل التّجزئة بحالٍ من الأحوال ، وأنّ رفض أيّ جزءٍ منه معناه رفض هذا الدّين الّذي ارتضى ربّ العزّة لعباده جملةً وتفصيلاً . قال تعالى في سورة القلم[2] مخاطباً

---

(١) سورة الصّافّات ، ١٧١ ـ ١٧٣ . (٢) آية ، ٨ ، ٩ .

رسـوله الكـريم : ﴿ فلا تـطع المكذّبين * ودّوا لـو تدهن فيـدهنـون ﴾ فهؤلاء الكافرون تمنّوا أن يلين لهم الرّسول الكريم كي يلينوا هم له في المقابل . وهذا هو الّذي يسمّى عادة بأنصاف الحلول . إنّ الإسـلام لا يعـرف أنصاف الحلول هـذه ، والقـرآن الكـريم ينهـانـا عن أن نـطيـع الكافرين في شيء . وإليك ، على سبيل المثال ـ هذه الصّفحة النّاصعة البيـاض من سيرة المصـطفى صلّى اللّه عليه وسلّم المتمثّلة في مـوقفـه وردّه على عمّه أبي طالب وقد ظنّ عليه الصّلاة والسّلام أنّ عَمَّـهُ خاذلُـه ومسلمـه بنـاءً على تهـديـد قـريش لـه لحمـايتـه صلّى اللّه عليـه وسلّم وشكواها له شتم الرّسول آباءهم وتسفيـه أحلامهم وعيب آلهتهم . فمـا كـان منه صلّى اللّه عليـه وسلّم إلاّ أن قال : يـا عمّ ، واللّه لو وضعـوا الشّمس في يميني والقمـر في يسـاري على أن أتـرك هـذا الأمـر حتّى يظهره اللّه أو أهلك فيـه ما تـركته[1] وقـد أظهر اللّه تعـالى هذا الـدّين وجـاء نصر اللّه والفتـح وقرّت بـذلـك عين المصـطفى صلّى اللّه عليـه وسلّم والمؤمنين . ولا شـكّ أنّ هذا المـوقف وأمثالـه المعين الّـذي لا ينضب لكلّ حامل رسالة من أمّة الإسلام . قال تعـالى[2] : ﴿ لقد كـان لكم في رسول اللّه أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو اللّه واليـوم الآخر وذكـر اللّه كثيراً ﴾ وليس بخافٍ علينا موقف أبي بكرٍ رضي اللّه تعالى عنـه من مانعي الزّكاة فقط . لقد عاملهم معاملة المـرتدّين لأنّ رفض ركنٍ واحـدٍ من أركـان الإسـلام أو حكمٍ من أحكـامـه معنـاه رفض الإسـلام جملةً وتفصيلاً . قال أبو بكر رضي اللّه تعالى عنه : واللّه لأقاتلنّ من فرّق بين الصّلاة والزّكاة ، فإنّ الزّكاة حق المال . واللّه لو منعوني عناقـاً[3] كانـوا

(١) السّيرة ١/٢٦٦ .
(٢) سورة الأحزاب ، ٢١ .
(٣) العناق ، كسحاب ، الأنثى من أولاد المَعَز والجمع أَعْنُق وعُنوق .

يؤدّونهـا إلى الرسـول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لقـاتلتهم على منعهـا ، وكـان رضي اللّه تعالى عنـه عند قـوله ، إنّ هـذه دروسٌ ينبغي أن يعيها الدّعاة إلى اللّه تعالى والقائمون على شؤونه . لا أنصـاف حلولٍ أبداً ، وبعد ذلك إمّا الحياة وإما الرَّدى .

عَذْبٌ فراتٌ ومِلْحٌ أُجاج

بعد الحديث عن الماء الطّهور النّازل من السّمـاء ، وما تبـع ذلك من تحـوّل الكـلام إلى القـرآن الكـريم النّـازل من السّمـاء أيضـاً وإلى الرّسول الكريم ورسالته العُظْمى ، كلُّ ذلك لفرط الاهتمام بماء الأرواح وغذائها ، يعود الحديث الى مظهرٍ ملـموس آخر من مـظاهر قـدرته عـزّ وجلّ ، ذي علاقةٍ وثيقةٍ بـالمظهـر السّابق لقـدرته عـزّ وجلّ الممثّـل في الماء الطّهور النّازل من السّمـاء وذي علاقـةٍ أيضاً بـاختلاف آيتي اللّيـل والنّهار ، اللّتين عرضت لهما الآيات الأول في هذا القسم . وهل المـاء الـطّهور النّـازل من السّماء إلاّ وليـد الأبخرة الّتي تكـوّنت بفعـل حـرارة الشّمس والّتي عادت مرّة أخرى إلى الأرض ماءً طهوراً ، ليلاً أو نهاراً ، بفعل اختلاف حرارة الأجواء العُلْيا ، أمّا هـذا المظهـر الأخر الملمـوس من مظاهر قدرته عزّ وجلّ ، فذو شقّين رئيسيّين ، يرتبط بأحدهمـا كونـه في الدرجة الأولى مصدر الماء الطّهور ويرتبط بثانيهما كونه في الدّرجـة الأولى ثمرة ذلك الماء الملح الطّهور . قال تعالى : ﴿ **وهو الّـذي مرج البحرين هذا عَذْبٌ فراتٌ وهذا مِلْحٌ أجاجٌ وجعل بينهما برزخاً وحجـراً محجوراً** ﴾ .

إنَّ اللّه سبحانه وتعالى قد خلق من أجلنا ما في الأرض جميعـاً . وهذه الآية الكريمة تلفت الانتباه إلى نعمةٍ من أجلّ نعمه عـزّ وجلّ على الخلق . إنّها نعمة الماء سواءً أكان عَذْبـاً يُعْتَبَرُ عمـاد حياة الإنسـان بعد

الهواء ، ولذا قدّمته الآية الكريمة في الذّكر من مظاهر تكريم اللّه تعالى للإنسان ، أم مِلْحاً أجاجاً يُضْرَبُ فيه ابتغاء فضل اللّه تعالى بـالتّجارة أو استخراج الطّعـام منه وأنـواعٍ من الحُليّ . ولكنّ الآية الكـريمة ، التي تجيء ضمن القسم من الحـديث الّـذي يتحـدّث عن أنـواعٍ من الميـاه مختلفة ، كلّها ضـروريّ لحياة الأبـدان والأرواح ، تتحدّث وفق طـريقة هذا القسم في إيجاز ، ومن الـزّاوية الّتي تكتفي بلفت الانتبـاه إلى أهمّ الجـوانب القادحـة لزنـاد الفكر ، المستثيـرة لجيشان النّفس ، المغـريـة بطول التّأمّل . إنّ هذه الآية الكريمة : ﴿ **وهو الّذي مرج البحـرين هذا عذبٌ فراتٌ وهذا مِلْحٌ اجاج وجعل بينهمـا برزخـاً وحجراً محجـوراً** ﴾ قادرةٌ على حمل الواقف عليها إلى أعلى الأجواء كي يلقي نظرةً عـريضةً على الكرة الأرضيّة من زاوية مائها ويابسهـا ، مكبراً تلك القـدرة الإلٰهية الّتي أرسلت المـاء المِلْح في المحيـطات والبحـار والمـاء العــذب في الأنهـار والبحيرات ، وكي يتحقّق النّفـع المراد لـلإنسـان من كـلٍّ ، لا يستطيع المتأمل إلى أيّ جانبٍ من الكرة الأرضيّـة وقعت عليه عينـاه إلاّ أن يحمد لهذه القدرة المطلقة تسخير كلّ من المائين لصـالحه . فـالماء الملح لا يستطيع بقـدرة القادر على كـلّ شيء إلاّ أن يتردّد في مكـانه ، يقدّم خطوة ويؤخّر أخرى في هيئة المدّ والجزر المقدّرين المضبوطين . والماء الفرات لا يستطيع إلاّ أن يجري في اليابسة وفق انحدارها المطّرد المتّجه نحو البحر كي يصبّ هذا فيـه أخيراً . إنّ المـاء المِلْح لا يمكن إلاّ أن يقف محتـاراً إذْعانـاً لإرادة الواحـد القهّـار الّـذي لـو شـاء لـه أن يجـري لأفسد اليـابسة وقضى على مـظاهر الحيـاةفيهـا وصعبت الحيـاة بـالنّسبة لـلإنسان وربّمـا تعـذّرت . وإنّ المـاء الفـرات لا يمكن إلاّ أن يجـري ، ولو كـانت الأرض مستويـةً لتحيّر فيهـا الماء وأسِن ، فقـلّ بـه النّفع أو لانعدم ، وتحوّل بالتالي وبالاً على الإنسان . والشّيء نفسه يقال

لـو أنّ انحدار الأرض أشـدّ ممّـا هـو عليـه . إنّ ذلـك يعني اتّجـاه كـلّ قطرات السّماء إلى البحر حالاً ، وفي ذلك هلاك الحرث والنّسل .

ولعلّه تبيّن أن نظرتنا إلى البحـرين قد راعت الحـركة الّتي تعنيهـا جملة « مرج » في الآية الكريمة .

وكلّما تعمّق المرء المنصف في تأمّل منافع كلٍّ من البحرين فـإنّه لا يملك إلاّ أن يزداد حمداً لبارئه وطـاعةً وإذعـاناً . إنّ هـذا التّعبير في صدر الآية : ﴿ **وهو الّذي** ﴾ يعني أنّ اللّه سبحانه وتعـالى هو المستحقّ وحـده للعبادة لأنـه له وحـده تعالى الخلق والأمر . ولا يملك المنصف أيضـاً إلاّ أن يتلو في خشوعٍ مثـل قولـه تعالى[1] : ﴿ **ألم تـروا أنّ اللّه سخر لكم ما في السّماوات وما في الأرض وأسبـغ عليكم نعمه ظـاهرة وباطنة * ومن النّاس من يجادل في اللّه بغيـر علمٍ ولا هدىً ولا كتـابٍ منير** ﴾ . وقوله تعالى[2] : ﴿**قل أئنكم لتكفرون بالّذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك ربّ العـالمين * وجعل فيهـا رواسي من فـوقها وبـارك فيها وقـدّر فيها أقـواتها في أربعـة أيّام سـواءً للسّائلين * ثمّ استوى إلى السّماء وهي دخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهـاً قالتا أتينـا طائعين * فقضـاهنّ سبع سمـاواتٍ في يومين وأوحى في كـلّ سماءٍ أمرها * وزيّنّا السّماء الدّنيا بمصابيح وحفظاً * ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ وقـوله تعـالى في الفرقـان : ﴿ **وهو الّـذي مرج البحـرين هذا عذبٌ فراتٌ وهذا ملحٌ أجاجٌ وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً** ﴾ .

ومن الجـائـز أن يفهم من اسم الإشـارة الّـذي يـدلّ على القـرب

(١) سورة لقمان ، ٢٠ .
(٢) سورة فصّلت ، ٩ ـ ١٢ .

« هذا » لفت الانتباه بدرجة أكبر إلى البحرين حينما يكونان غير بعيدين من بعضهما إلى أن يلتقي المتحرّك بالمتحيّر . وحينما يقدّر للبحرين أن يلتقيا بعد شوقٍ لطول الافتراق بسبب البرزخ والحجر المحجور ، فإنّه الالتقاء الجميل الطّبيعيّ الهادىء الوادع الّذي يتحقّق به للإنسان الخير والجمال .

وحيث إن التّعبير : « حجراً محجوراً » سبق أن جاء في هذه السّورة الكريمة حكايةً على ألسنة الكافرين يوم القيامة حين يرون الملائكة ، مستعيرين ما كان يجيء على ألسنتهم حينما يحدق بهم في الدّنيا شرٌّ مستطير ، فيستعيذون باللّه تعالى منه ، قال تعالى : ﴿ **يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً** ﴾ وحيث إنّ سورة الرّحمن[1] في قوله تعالى : ﴿ **بينهما برزخٌ لا يبغيان** ﴾ قد نفت بسبب البرزخ ، أن يبغي أحد البحرين على الآخر ، على طريق الاستعارة ، فقد ذهب الزّمخشريّ[2] بشأن قوله تعالى : ﴿ **وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً** ﴾ إلى القول : « فإن قلت : وحجراً محجوراً ، ما معناه ؟ قلت ، هي الكلمة الّتي يقولها المتعوّذ وقد فسّرناها . وهي هٰهنا واقعةٌ على سبيل المجاز ، كأنّ كلّ واحدٍ من البحرين يتعوّذ من صاحبه ويقول له : حجراً محجوراً ، كما قال : لا يبغيان . أي لا يبغي أحدهما على صاحبه بالممازجة . فانتفاء البغي ثمّة كالتّعوّذ هٰهنا . جعل كلّ واحدٍ منهما في صورة الباغي على صاحبه فهو يتعوّذ منه . وهي من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة » وهذا كلامٌ جميل . ولو لم يذهب الزّمخشريّ إلى هذا الرّأي لحسبتني ذاهباً الى قريبٍ منه .

---

(١) آية ، ٢٠ .   (٢) الكشّاف ٢/٤١٢ .

من الماء بشر :

لاحظنا أنّ الآيات السّابقة ، بعد أن لفتت الانتباه إلى آيتي اللّيل والنّهار الدّالّتين على قدرته عزّ وجلّ المطلقة ، تحوّلت إلى الحديث عن نعمةٍ كبرى من نعم اللّه تعالى وآية من آياته ذات علاقةٍ وثيقةٍ باللّيل والنّهار ، بالقرّ والحرّ ، ألا وهي نعمة الماء النّازل من السّماء والنّاتج عن مجموعةٍ من التّفاعلات ، تتمّ بإرادته تعالى . ولمّا كانت حياة الإنسان الرّوحيّة لا تقلّ بحالٍ من الأحوال عن حياته المادّيّة إن لم تزد عليها ، لذلك كان من الطّبيعيّ جدّاً أن يولي جانب الرّوح عنايةً كبرى ، خاصّةً وأنّ مصدر المائين ماء الحياة وماء الأرواح واحد . والمراد بماء الأرواح وغذائها القرآن الكريم .

وبما أنّ كلّ ما في السّماوات والأرض إنّما خلقه اللّه تعالى من أجل الإنسان وسخّره له ، وبما أنّ القرآن الكريم إنّما أنزله اللّه تعالى على خاتم الأنبياء والمرسلين من أجل هذا الإنسان ويسّره للذّكر ، فمن الطّبيعيّ أن يتحوّل الحديث إلى هذا الإنسان . ولكن : من أيّ الزّوايا ؟ من زاوية الطّابع الغالب على هذه المجموعة من الآيات ، من زاوية كون الإنسان ماءً أساساً . وهكذا تجمع الآيات بين أنواع من الماء رئيسيّة ، ماء الحياة ، وماء الأرواح ، وأخيراً الإنسان الّذي خلقه ربّه من ماء وجعله في أحسن تقويم وكرّمه وسخّر له كلّ ما في السّماوات والأرض وأنزل من أجله ماء الحياة وماء الأرواح . قال تعالى : ﴿ **وهو الّذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً * وكان ربّك قديراً** ﴾ .

ويقال عن المطلع الّذي تبدأ به أربع آيات : ﴿ **وهو الّذي** ﴾ ما قيل من قبل . إنّه يعني بداهة أنّ اللّه تعالى وحده المستحقّ للعبادة .

والآية الكريمة كما لاحظنا ، تعرض للإنسان من زاوية الجوّ العامّ للآيات ، من زاوية كونه في الأصل ماءً ، يخرج من بين الصُّلب والتّرائب ، قال تعالى(١) : ﴿والله خلق كلّ دابّةٍ من ماء﴾ وقال تعالى(٢) : ﴿فلينظر الإنسان مِمَّ خلِق، خُلِقَ من ماء دافق، يخرج من بين الصُّلب والتّرائب﴾ . والآية كذلك تشير إلى النّوعين ، الذّكر والانثى ، ولكنّها تنظر اليهما من الزّاوية الّتي تتمشّى مع الجوّ العام للآيات والهدف منها ، وذلك من ناحيتين ، ناحية النّسب ، وعصب هذه النّظرة الذّكور . ومن ناحية وشائج المصاهرة ، وعصب هذه النّظرة الإناث . فإذا نظرت الآية الكريمة إلى الذّكر نظرت إليه باعتباره زوجاً وعصباً لسلسلة من النّسب طويلة ، تعود إلى الوراء حتّى آدم عليه السّلام . وإذا نظرت إلى الأنثى نظرت إليها باعتبارها زوجة وعصب وشائج المناكحة . وهي بهذا تعطي سلسلة النّسب الطويلة أبعادها عَرْضاً . ولا يخفى أنّ هذه النّظرات للذّكر والأنثى من حيث كونهما نسباً وصهراً ، تعتبر تقريراً نظريّاً لما جاء في صدر الآية الكريمة ﴿ وهو الّذي خلق من الماء بشراً ﴾ وإن شئت قلت تطبيقاً عمليّاً للواقع المحسوس.

وتأمّل عجز الآية الكريمة : ﴿ وكان ربّك قديراً ﴾ إنّها معمّقةٌ لأبعاد تلك السلسلة البشريّة الّتي تأخذ من جهة النّسب أبعادها طولاً وعرضاً ومن جهة الصّهر أبعادها عَرْضاً وطولاً . إنّ هذه العمليّة العجيبة تتمّ بقدرته عزّ وجلّ ملايين الملايين من المرّات ، من عهد آدم عليه السّلام إلى أن يرث اللّه تعالى الأرض ومن عليها . وهل ثمّة إنسانٌ منصفٌ إلّا ويقف مشدوهاً أمام ذلك الحشد الهائل من مظاهر قدرته عزّ

---

(١) سورة النّور ، ٤٥ .
(٢) سورة الطّارق ، ٥ ـ ٧ .

وجلّ حينما تتمّ عمليّة إخراج طفل واحد من بطن أمّه ، فكيف وهذه العمليّة تتكرّر يوميّاً آلاف المرّات . إنّنا حينما نصغي إلى ما يقول المتخصّصون في هذا الميدان عن النّطفة والبويضة وعمليّة التّلاقح والمراحل الّتي يمرّ بها الجنين ونوع الجنين تبعاً للنّطفة وما يرث من صفات وخلال الخ الخ . ممّا يعجز عن تصوّره عقل لا نملك إلّا أن نفرّ إلى اللّه تعالى موجدنا من العدم وخالقنا في أحسن تقويم . نتأمل في إجلال هذه النّفس الإنسانيّة الّتي احتارت البريّة فيها تَمشّياً مع قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ ولا نملك إلّا أن نتلو في خشوعٍ وتدبّر أمثال هذه الآيات من الذّكر الحكيم . قال تعالى[2] : ﴿ **أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون * نحن قدّرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين * على أن نبدّل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون * ولقد علمتم النّشأة الأُولى فلولا تذكّرون** ﴾ وقال تعالى[3] : ﴿ **ألم نخلقكم من ماءٍ مهين * فجعلناه من قرارٍ مكين * إلى قدرٍ معلوم * فقدرنا فنعم القادرون * ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين** ﴾ وقال تعالى[4] : ﴿ **يا أيُّهاالنّاس إن كنتم في ريبٍ من البعث فإنّا خلقناكم من ترابٍ ثمّ من نطفةٍ ثمّ من علقة ثمّ من مضغةٍ مخلّقة وغير مخلّقة لنبيّن لكم * ونقرّ في الأرحام ما شاء إلى أجل مسمّىً ثم نخرجكم طفلاً ثمّ لتبلغوا أشدّكم ومنكم من يُتوَفّى ومنكم من يُرَدّ الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً * وترى الأرض هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربَتْ وأنبتت من كلّ زوجٍ بهيج* ذلك بأنّ اللّه هو الحقّ وأنه**

---

(١) سورة الذّاريات ، ٢١ .
(٢) سورة الواقعة ، ٥٨ ـ ٦٢ .
(٣) سورة المرسلات ، ٢٠ ـ ٢٤ .
(٤) سورة الحجّ ، ٥ ـ ٧ .

يحيى الموتى وأنّه على كل شيء قدير * وأنّ السّاعة آتيةٌ لا ريب فيها وأنّ اللّه يبعث من في القبور ﴾ . وقال تعالى[1] : ﴿ **والتين والزّيتون * وطور سنين * وهذا البلد الأمين * لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم** ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ **خلق السّماوات والأرض بالحقّ وصوّركم فأحسن صوركم وإليه المصير** ﴾ .

وإذا كانت قدرة اللّه تعالى تتجلّى في خلقه للإنسان في أحسن تقويم ، إذ إنّه أجمل وأكمل المخلوقات في هذه الأرض الّتي عليها نحيا ، فإنّ هذه القدرة تتجلّى أيضاً في اختلاف الصّورة ، بين الإنسان وبين أقرب النّاس إليه ، حتّى وإن كانا توأمين يبدو للوهلة الأُولى أنّهما متّحدان . وكي نتصوّر شيئاً من مظاهر هذا الجلال ، في إمكاننا أن نستعرضَ ولو في الخيال ملايين الأوجه لشعبٍ معيّن تتشابه ملامح أبنائه . إنّه على الرّغم من صغر المساحة الّتي يحتلّها الوجه وكون عناصره محدودة ، إلاّ أنّك لن تجد وجهين اثنين متماثلين . فسبحان اللّه تعالى الخالق الباريء المصوّر .

ولم تعرض الآية الكريمة من قريبٍ أو بعيد للأصل الّذي خلق منه آدم عليه السّلام ، وهو الطّين اللاّزب ، لأنّ الجوّ الغالب على الآيات ـ كما بيّنا ـ هو جوّ المياه بأنواعها ، هذا إلى أنّ النّظرة من هذه الزّاوية تعتبر حينما تقارن بالواقع ، جامعةً بين النّاحيتين النّظرية والعملية معاً . إنّ هذه النّظرة الحيّة للآية الدّالة على القدرة المطلقة للّه عزّ وجلّ ، قادرةٌ على حمل كل منصفٍ على أن يأخذ منها العظة والاعتبار ، قال تعالى : ﴿ **وهو الّذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً ، وكان ربّك قديراً** ﴾ .

---

(١) سورة التين ، ١ ـ ٤ .   (٢) سورة التّغابن ، ٣ .

كان الكافر على ربّه ظهيراً :

سخَّر الله تعالى للإنسان ما في السّماوات والأرض كي يُنْعِمَ النّظر ويديم التّدبّر ، وينتهي حتماً ، إن كان منصفاً إلى أنّ اللّه تعالى وحده متفرّدٌ بالخلق والأمر . قال تعالى(١) : ﴿**إنّ في خلق السّماوات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار لآياتٍ لأولى الألباب . الّذين يذكرون اللّه قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السّماوات والأرض ، ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النّار**﴾ وحثّ تعالى الإنسان على أن يتأمل ذاته هو كي ينتهي إلى الغاية ذاتها ، قال تعالى(٢) : ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ وبعث اللّه تعالى : ﴿ **رسلاً مبشّرين ومنذرين لئلا يكون للنّاس على اللّه حجَّةٌ بعد الرّسل**﴾(٣) فليس ثمّة من أمّةٍ إلاّ وقد خلا فيها نذير . وبعث اللّه تعالى أخيراً خاتم الأنبياء والمرسلين وأنزل عليه القرآن الكريم الّذي يسّره للذّكر وتكفّل بحفظه ، وقيّض ـ بعد ذلك ـ من يخدم سنّة رسوله حتّى بلغت من حيث الصحّة ووصلتنا من حيث الشّمول الدّرجة الّتي ليس لها نظيرٌ في سائر الملل والنّحل . فما هو موقف كفّار مكّة ، زمن الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم من كلّ هذه الآيات ؟ هذا هو الجواب ، قال تعالى : ﴿ **ويعبدون من دون اللّه ما لا ينفعهم ولا يضرّهم وكان الكافر على ربّه ظهيراً** ﴾ إنّ اللّه تعالى هو النّافع وهوالضّار ، والّذين يدعون من دون اللّه ما يملكون من قطمير . ومع ذلك يصرّ هؤلاء الكافرون على اتّخاذ هذه الآلهة وسطاء إلى اللّه تعالى كي تقرّبهم إليه زُلْفى ، مع أنّ القرآن الكريم والرّسول

---

(١) سورة آل عمران ، ١٩٠ ، ١٩١ .
(٢) سورة الذّاريات ، ٢١ .
(٣) سورة النّساء ، ١٦٥ .

العظيم ، يصرّحان بأنّ اللّه تعالى لا يحتاج إلى واسطة ، وأنّه عزّ وجلّ أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد . فعلى كلّ إنسان أن يتوكّل على اللّه تعالى وحده ، كما نصّت على ذلك آية تالية . ويصرّ القوم على عبادة هذه الآلهة العاجزة عن أن تقدّم شيئاً من نفع ومن باب أولى أن تكون عن الضّرّ أعجز . عن دفع الضّرّ الّذي أوقعه اللّه تعالى بمن شاء من عباده ، وعن إلحاق الضّرّ بمن هجرها . لقد أوحى تقديم النّفع في الآية الكريمة على الضّرّ بهاتين المرتبتين المعمّقتين لحقيقة عجز الآلهة من دون الله تعالى . قال عزّ وجلّ من قائل : ﴿ **ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرّهم** ﴾ .

وإنّ الكافر بهذا الانصراف عنه عزّ وجلّ ، لتتلقّفه الشّياطين . وهو بهذا كنودٌ لربّه ، حربٌ عليه وظهير ، ومعاونٌ للشّيطان وحليفٌ له . هذه هي صفات أعداء اللّه تعالى في كلّ زمان ومكان . قال تعالى : ﴿ **وكان الكافر على ربّه ظهيراً** ﴾ .

تسلية المصطفى صلى اللّه عليه وسلّم والتّسرية عنه :

وما الّذي يستطيع المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ، الّذي كادت نفسه تذهب حسراتٍ لانصراف قومه عن طريق الهدى ، أن يفعل ، بعد أن بلغ أقصى درجات الاجتهاد في تبليغ الرّسالة وأداء الأمانة ؟ لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، وتأبى رحمة الله تعالى أن تتركه لأحزانه تنهشه ، ومن ثمّ كانت تسليته عزّ وجلّ لرسوله وتسريته عنه في صورٍ شتّى ، من أهمّها نزول القرآن الكريم مفرّقاً ، وفيه الفينة بعد الفينة ما يخصُّه عليه الصّلاة والسّلام شخصيّاً بقصد التّسرية عنه ، ومن ذلك هذه الآيات الكريمة ، قال تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلاّ مبشّراً ونذيراً * قل ما أسألكم عليه من أجرٍ إلاّ من شاء أن يتّخذ إلى ربّه سبيلاً * وتوكّل على**

الحيّ الّذي لا يموت وسبّح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً * الّذي خلق السّماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّامٍ ثمّ استوى على العرش الرّحمٰن فاسأل به خبيراً﴾ .

أمّا هذه الآية الكريمة : ﴿ **وما أرسلناك إلاّ مبشّراً ونذيراً** ﴾ فإنّها تحدّد مهمّة الرّسول الكريم شخصيّاً . فليس عليه صلّى اللّه عليه وسلم سوى البلاغ . يبشّر المتّقين وينذر الكافرين . ويوم القيامة كلٌّ مثابٌ أو معاقب وفق ما فعل في الدّنيا من خير أو شرّ .

ومع أنّ المهمّة الّتي يضطلع بها الرّسول الكريم غايةٌ في الصّعوبة ، إذ إنّ هدفها الأوّل إصلاح الأنفس الخربة ، وما أشدّ صعوبة التّصَدّي لحمل النّفوس الملتوية على الاستقامة . ومع أنّه حقٌّ لكلّ عاملٍ أن يأخذ أجره لقاء ما قدّم من نفع ، فإنّ الرّسول الكريم الّذي يتصَدّى لأجلّ الأعمال وأشقّها لا يريد مقابل التّضحيات الّتي يبذلها سوى أن يتحوّل النّاس من ظلمات الشّرك إلى نور التّوحيد ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة . أن يتّجهوا إلى ربّهم سالكين السّبيل الموصلة إلى أجمل غايةٍ وأنبل هدف ، السّبيل المبيّنة في القرآن الكريم والسّنّة المطهّرة . وها هو ذا القرآن الكريم يطلب إلى الرّسول العظيم أن يصرّح لقومه بالغاية الّتي إليها يقصد من دعوته . إنّها ليس لها علاقةٌ مطلقاً بأيّة مصلحةٍ دنيويّة شخصيّة للرسول الكريم ، إنّما المصلحة عائدةٌ للقوم أنفسهم ، إذ يُجْمَعُ لهم بين خيري الدّنيا والآخرة حينما يسلكون الصّراط المستقيم ، صراط القرآن الكريم والسّنّة المطهّرة ، ويصحّ في حقّهم بإذنه تعالى قوله تعالى[1] : ﴿ **من عمل صالحاً من**

(١) سورة النّحل ، ٩٧ .

ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

وتأمّل حرف الجرّ « من » في قوله « من أجر » الدّالّ على التبعيض ، وحينما ينفي بعض الأجر فذلك أدلّ على نبل الغاية وسموّ المقصد . وتأمّل ضمير الغائب من قوله « إلى ربّه سبيلاً » العائد إلى كلّ متّخذٍ إلى اللّه تعالى سبيلاً ، المشعر كلّ واحدٍ بأنّ الأوْلى به أن يتّجه إلى ربّه الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذي ينتظر بشوقٍ عودة عبده إليه ويستقبل بفرحٍ عودته .

إن طريق الحق أبلج واضح ، والهدف محدّد الابعاد هو سعادة الإنسان في الدّنيا والآخرة بفعل الحسنات واجتناب السّيّئات ، دون أن يكون للرّسول الكريم أدنى مصلحةٍ مادّيّةٍ لقاء ما يقوم به من جليل الأعمال ، فمن أطاع الرسول الكريم في كلّ ما أمر به ونهى عنه نجا وفاز ، ومن عصاه خسر وهلك . لا مساومة على هذه المبادىء ولا أنصاف حلول . والأمر للّه تعالى من قبل ومن بعد . فعلى الرّسول الكريم أن يتوكّل على اللّه تعالى الحيّ الّذي لا يموت . القيّوم الّذي يخضع كلّ ما في السّماوات والأرض لإرادته وحكمته ، الّذي لا تأخذه سنةٌ ولا نوم . وأن يسبّح اللّه تعالى بلسانه ، المترجم عمّا تمتلىء به نفسه بين جنبيه من حمدٍ لله تعالى على نعمه الّتي لا تُحْصى وآلائه الّتي لا تُعَدّ ، الخبير بصغير الذّنوب وكبيرها الّتي يقوم بها الّذين عصوا اللّه تعالى والرّسول الكريم . وإلى الحثّ على التّوكّل على اللّه تعالى ورفض الإصغاء إلى الجاحدين والمساومة وأنصاف الحلول والحثّ على التّسبيح والتّحميد وكونه عزّ وجلّ خبيراً بذنوب عباده ، وفي ذلك وعيدٌ للكافرين ، أشارت الآية الكريمة . قال تعالى : **﴿ وتوكّل على الحيّ**

الّذي لا يموت وسبّح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ . « **وقرأ بعض السَّلف هذه الآية فقال : لا يصح لذي عقلٍ أن يثق بعدها بمخلوق**»[1] .

ولا يخفى أنّ الآية الكريمة تتضمّن مظاهر شتّى من التّسرية عنه صلّى اللّه عليه وسلّم . فحتّى في حالة إعراض النّاس عنه هو كثيرٌ باللّه تعالى الّذي لن يتخلّى عنه طرفة عين ، يلهج لسانه بذكره ويمتلىء قلبه بحبّه وخشيته ، أمّا الذّنوب الّتي يرتكبها الّذين تولّوا ، وأفسدوا في الأرض وقطّعوا أرحامهم ، فإنّها ليست بخافيةٍ على الّذي يعلم السّرّ وأخفى . وكفى يراد بها المبالغة« تقول : كفى بالعلم جمالاً ، وكفى بالأدب مالاً ، أي حسبك لا تحتاج معه إلى غيره لأنّه خبيرٌ بأحوالهم قادرٌ على مكافأتهم »[2] ولا يخفى أيضاً أنّ في الآية الكريمة درساً بليغاً لكلّ حامل رسالةٍ من أمّة الإسلام . على كلّ أن يعلم أنّ الطّريق ليست معبّدةً بل مليئةً بالأشواك ، وأن يكون على يقينٍ من أنّه كثيرٌ باللّه تعالى يستمدّ منه العون والتّوفيق ، وأنّ عليه الاجتهاد في التّبليغ . أمّا النّتائج وأمّا الحساب فأمرهما موكولٌ إليه عزّ وجلّ . قال تعالى خطاباً لنبيّه الحبيب[3] : ﴿ **إنّك لا تهدي من أحببت ولكنّ اللّه يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ ، وقال تعالى[4] : ﴿ **فإنّما عليك البلاغ وعلينا الحساب** ﴾ .

وإذا كانت هذه الآية الكريمة تأمر بالتّوكّل على الحيّ القيّوم

---

(١) البحر المحيط ، ٦/٥٠٨ .
(٢) البحر المحيط ، ٦/٥٠٨ .
(٣) سورة القصص ، ٥٦ .
(٤) سورة الرّعد ، ٤٠ .

وبالتّسبيح بحمده ، وتنصّ على علمه عزّ وجلّ المحيط ، فإنّ الآية الكريمة الثّانية ، تنصّ على قدرته عزّ وجلّ المطلقة وعلمه المحيط أيضاً : قال تعالى : ﴿ **الّذي خلق السّماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام ثمّ استوى على العرش الرّحمن فاسأل به خبيراً** ﴾ .

إنّ قدرة اللّه تعالى تتجلّى في خلق السّماوات والأرض وما بينهما ، وفي طاعة كلّ ذلك للرّحمن الرّحيم . قال تعالى[1] : ﴿ **ثمّ استوى إلى السّماء وهي دخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طَوْعاً أو كرهاً * قالتا أتينا طائعين** ﴾ . وقال تعالى[2] : ﴿ **يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسّماوات وبرزوا للّه الواحد القهّار** ﴾ وقال تعالى[3] : ﴿ **إن كلّ من في السّماوات والأرض إلاّ آتى الرّحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدّهم عدّاً * وكلّهم آتية يوم القيامة فرداً** ﴾ . وقد أشارت سورة فصّلت[4] إلى خلق السّماوات والأرض وما بينهما في شيء من التفصيل بشأن الأيّام الستّة . ولو شاءت إرادته عزّ وجلّ أن يتمّ الخلق في لحظةٍ لفعل . وفي هذا درسٌ لنا نحن البشر في التّريّث والأناة .

وإذا كان الاستواء في اللّغة معلوماً ، وكان العرش في اللّغة بمعنى سرير الملك ، فإنّ رأي السّلف معروفٌ في استواء اللّه تعالى على عرشه . الاستواء معلومٌ والكيف مجهول .

ويجوز أن نعتبر اسم الموصول « الّذي » في صدر الآية ، صفة للحيّ في الآية السّابقة ، وعليه يمكن أثناء التلاوة أن نقف عند لفظة

---

(١) سورة فصّلت ، ١١ .
(٢) سورة إبراهيم ، ٤٨ .
(٣) سورة مريم ، ٩٣ ـ ٩٥ .
(٤) الآيات ، ٩ ـ ١٢ .

العرش . كما يجوز أن نعتبر لفظة « الرّحمن » بعد ذلك خبراً لمبتدأ محذوف ، وعليه تكون مرفوعة .

ويبقى بشأن الآية الكريمة سؤالٌ هو : على من يعود الضمير مِنْ « به » في قوله تعالى : ﴿ **الرّحمن فاسأل به خبيراً** ﴾ ؟ في سبيل الإجابة على السّؤال نحن بحاجة إلى العودة إلى عجز الآية السّابقة للتّشابه بين الآيتين في استعمال هذا الضّمير ذاته من ناحية ، وصفة الخبير من ناحية أخرى ، قال تعالى : ﴿ **وكفى به بذنوب عباده خبيراً** ﴾ ، وحيث إنّ الضّمير هنا يعود بالإجماع إلى الذّات العليّة الّتي وُصِفَتْ بالخبرة ، فإنّا لا نرى ما يمنع أن يكون هذا هو المعنى المراد في عجز الآية الكريمة الّتي نحن بصددها ، خاصّةً وأنّ الموضوع واحد ، والقرآن الكريم يجنح إلى مثل هذا التكرار في الفواصل أحياناً بقصد شدّ الانتباه إلى المعنى المعيَّن ذاته ، وعلى ذلك يكون معنى قوله تعالى : ﴿**الرَّحمن فاسأل به خبيراً**﴾ ما قال الزّمخشريّ[1] ضمن آراء أخرى له : « أو فَسَلْ بسؤاله خبيراً ، كقولك رأيت به أسداً ، أي برؤيته . والمعنى إن سألتَهُ وجدته خبيراً » أو ما قال أبو حيّان[2] : « وخبيراً من صفات اللّه ، كما تقول : لقيت بزيدٍ أسداً ، ولقيت بزيد البحر ، تريد أنّه هو الأسد شجاعةً والبحر كرماً . والمعنى أنّه تعالى اللّطيف العالم الخبير ، والمعنى فاسأل اللّه الخبير بالأسئلة العالم بحقائقها » . ومع أنّ للعلماء في هذا الشّأن آراء عدّة ، فإنّ النّفس أشدّ ميلاً إلى هذا الرّأي ، واللّه تعالى أعلم بالمراد ، وينبغي أن تكون لفظة الرّحمن في الآية ، يراد بها إكمال التّسرية عنه صلى اللّه عليه وسلم الّذي لم يتخلّ عنه ربّه عزّ وجلّ طرفة عين ، رحمةً منه وفضلاً .

---

(١) الكشّاف ٢/٤١٣ .

(٢) البحر المحيط ، ٦/٥٠٨ .

ومع أنّ الواجب يقتضي المنذرين أن يعودوا إلى جادّة الصّواب ، ويحمدوا اللّه تعالى على نعمه ويشكروه على آلائه ، فإنّهم يعملون بعكس ذلك ؛ بل يتعمّدون صرف الكلام المبين عن وجهه . والآية الكريمة التّالية من الأمثلة على ذلك. قال تعالى : **﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرّحمن قالوا وما الرّحمن؟ أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً﴾**.

فعلى الرّغم من كون لفظة « الرّحمن » معروفة المعنى ، لكونهم أهل الفصاحة وأئمّة البيان ، فمن غير المعقول أن يكونوا ـ مثلاً ـ على علم بمعنى لفظتي الرّحيم والرّاحم اللّتين يستعملون ، ولا يعرفون معنى لفظة الرّحمن الدّالة على المعنى القريب منه . ومع ذلك فإنّ القوم يصرّون على توجيه الكلام وفق أهوائهم السّيّئة ، فإذا قيل لهم اسجدوا للرّحمن ، أي اسجدوا للّه تعالى ، تظاهروا هذه المرّة بأنّهم يجهلون معنى هذه اللّفظة فقالوا : وما الرّحمن ؟ إنّهم يستعملون «ما » عمداً لأنّها تستعمل في السّؤال عن المجهول ، مع علمهم القطعيّ أنّ الّذي يأمرهم بالسّجود للرّحمن هو ذات الرّسول الكريم الّذي يدعوهم إلى توحيد اللّه عزّ وجلّ . إنّ كلّ الملابسات توحي بأنّ الرّحمن اسمٌ من أسمائه عزّ وجلّ الواحد الأحد الفرد الصّمد . ولكنهم يستنكرون أن يطلب منهم السّجود للّه تعالى ، ويزيدهم مثل هذا الطّلب إعراضاً عنه عزّ وجلّ وفراراً ، قال تعالى : **﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرّحمن قالوا وما الرّحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً﴾** .

إنّهم في حقيقة أمرهم ينفرون من الدّعوة إلى توحيد اللّه تعالى في أيّة صورة من الصّور ، فإذا كانوا قد تظاهروا هنا بعدم معرفة معنى لفظة الرّحمن ، وحينما عُرّفوا بالمعنى زادتهمُ المعرفة نفوراً ، فإنّهم في مناسبة أخرى بل في مناسباتٍ أخر ، يقومون بالحركة نفسها حينما يذكر

اللّه تعـالى وحده لا شـريك لـه . قـال تعـالى في سـورة الإسـراء[1] : ﴿ **وإذا ذكرت ربّك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفوراً** ﴾ . وقال تعالى في سورة الزّمر[2] : ﴿ **وإذا ذكر اللّه وحده اشمأزّت قلوب الّذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الّـذين من دونه إذا هم يستبشـرون** ﴾ وقال تعالى في سورة الرّعد[3] : ﴿ **كذلك أرسلناك في أمّةٍ قد خلت من قبلها أممٌ لتتلو عليهم الّذين أوحينا إليك وهم يكفرون بالرّحمن ، قل هو ربّي لا إله إلاّ هو عليه توكّلت وإليه متاب** ﴾ .

ويبـدو أنّ كفّار مكّـة كان يحلو لهم استغـلال استعمـالهم سـابقـاً للفظة الرّحمن في هذا المعنى ، باتّخاذ ذلك ذريعـةً لتأويـل الكلام وفق أهوائهم ، فإذا كانوا هنا قد تـظاهروا بعـدم معرفتهم لمعنى هـذه اللّفظة الواضح وضوح الشّمس في رابعة النّهار ، فإنّهم في منـاسبةٍ أخـرى وقد سمعوا المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم يدعو : يا اللّه يا رحمٰن فقالوا : كان محمّدٌ يدعو إلٰهاً واحداً وهو يدعو إلهين ، فأنزل اللّه تعالى قـوله[4] : ﴿ **قل ادعوا اللّه أو ادعوا الرّحمٰن أيّاماً تـدعو فله الأسمـاء الحُسْنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً** ﴾[5] .

عودٌ على بدْء

ختمت آيـات هذا القسم بـالعودة إلى مـا بدئت بـه من إشارة إلى اللّيل والنّهار . وهما من عمد الجـانب المادّيّ لنعم اللّه تعـالى في هذا

(١) آية ، ٤٦ .
(٢) آية ، ٤٥ .
(٣) آية ، ٣٠ .
(٤) سورة الإسراء ، ١١٠ .
(٥) انظر هنا البحر المحيط ، ٦/٩٠ .

القسم . ولهاتين الآيتين كبير علاقةٍ بآيتي السّماء والأرض . قال تعالى : ﴿ **تبارك الّذي جعل في السّماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً . وهو الّذي جعل اللّيل والنّهار خلفةً لمن أراد أن يذّكّر أو أراد شكوراً** ﴾ .

ونحن إذا نظرنا إلى جملة تبارك من زاوية كون البروج والشمس والقمر جزءاً من خلق اللّه تعالى للسّماوات والأرض ، أمكن أن يكون المعنى : تعاظم الّذي جعل في السماء بروجاً ، وإذا نظرنا إليها من زاوية النّفع الحاصل منها والغاية من خلقها ، بدليل استعمال الآية بعد ذلك جملة جعل أمكن أن يكون المعنى تكاثر خير الّذي جعل في السّماء بروجاً ، ونحن إلى الرأي الثاني أميل .

وحيث إنّ هذه الآية الكريمة الّتي تشير إلى السّماء تخصّ بالذّكر منازل الكواكب السّبعة السّيّارة والشّمس والقمر ، وحيث إنّ اعتماد العرب على هذه الكواكب السّبعة كبيرٌ جدّاً وعلمهم بها غاية في الكمال والدّقة ، لارتباط مصالحهم بها وهم الّذين يعيشون على الرّعي فالزّراعة ، فما أشد حاجة هؤلاء وأولئك للماء الّذي عليه يعتمدون وما أشدّ قدرة هذه المنازل على تحقيق الأهداف الّتي إليها يقصدون . لذلك كلّه يمكن القول : إنّ منافع هذه المنازل بالنّسبة للعرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم لا تقلّ بحالٍ من الأحوال عن منافع الشّمس نهاراً والقمر ليلاً . كما يمكن القول إنّ هذه الحقائق الّتي إليها أومأنا تريد الآية الكريمة من هؤلاء العرب أن يتدبّروها وينعموا النّظر في منافعها ويشكروا عليها للّه تعالى الشكر اللّائق بجلاله وعظمته وهو الّذي مَنَّ عليهم بإرسال الرّسول الكريم واحداً منهم وإنزال القرآن العظيم .

أمّا منازل الكواكب السّبعة السّيّارة فهي : « الحمل والثّور والجوزاء والسّرطان والأسد والسُّنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدّلو والحوت . سمّيت بالبروج الّتي هي القصور العالية . لأنّها لهذه الكواكب كالمنازل لسكّانها ، واشتقاق البُرْج من التبرُّج لظهوره »[1] .

والمراد بالسّراج الشّمس ، قال تعالى في سورة نوح[2] : ﴿ **ألم تروا كيف خلق اللّه سبع سماواتٍ طباقاً وجعل القمر فيهنّ نوراً وجعل الشّمس سراجاً** ﴾ . وإنّما قيل عن الشّمس إنّها سراج لأنّها متوقّدة في ذاتها ومصدر إشعاع . وقيل عن القمر إنّه نورٌ لأنّه لا توقُّد له ، إنّما هو بمنزلة المرآة الّتي تعكس نور الشمس ، وقد أثبت العلم كلّ هذه الحقائق ، فسبحان اللّه القادر على كلّ شيء ، والّذي لا يخفي عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء .

وهكذا يتبيّن أنّه على الرّغم من أنّ الأرض لم تذكر صراحةً في الآية الكريمة إلاّ أنّها مذكورةٌ ضمناً ، إذ القصد أن يتدبّر سكّان هذه الأرض نعم اللّه تعالى عليهم . والّتي تتجلّى فيما يتّصل بالسّماء في هذه الآيات البارزات ، البروج والشّمس والقمر ، تماماً كما تتجلّى في كلّ الآيات سواها ، وإنّما نصّت الآية على هذه النّعم بالذّات ، لتساوي العرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم في الإحساس بالحاجة إليها وتقدير المنافع الحاصلة منها .

فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة التّالية ، قال تعالى : ﴿ وهو الّذي

---

(١) الكشّاف ٢/٤١٤ .

(٢) آية ، ١٥ ، ١٦ .

جعل اللّيل والنّهـار خلفةً لمن أراد أن يـذّكّر أو أراد شكـوراً ﴾ وأنعمنا النّظر تبيّن أنّ الهدف من التّنبيه إلى آيتي اللّيل والنّهـار التّذكّـر أو الشّكر من قبل سكّان هـذا الكوكب على نعم اللّه تعـالى الجليلة بتوالي اللّيـل والنّهار ، والّذي تشتـرك كلٌّ من السّمـاء والأرض ، بإرادتـه عزّ وجـلّ ، على تواليهما: الشّمس تلقي بضوئهـا على الأرض الّتي تدور وفق حـركة مقدّرة مضبوطةٍ لا تختلف مطلقاً .

وعن هذا التعبير في صدر الآية ﴿ **وهو الّذي** ﴾ يقـال ما قيـل عن مثيله من ذي قبـل . وإنّ لفـظة « خِلْفَـةً » الّتي انتصّبت على الحـال ، والّتي تـدلّ على أنّ اللّيـل والنّهـار يعقب هـذا ذاك وذاك هــذا ومن ثمّ يقال : اللّيل والنّهار يختلفان كما يقال يعتقبـان . ومن قولـه : واختلاف اللّيل والنّهار[1] ، قادرةٌ بمعانيها المتشعّبة الموحية ، على أن تحمل كلّ إنسانٍ متدبّرٍ منصفٍ على الانتهاء إلى الشّكر للّه تعالى بعبادته وحـده لا شريك له . قال تعالى في سورة النّبأ[2] : ﴿ **وجعلنا اللّيل لباساً وجعلنا النّهـار معاشـاً** ﴾ وقال تعـالى في سـورة الإسـراء[3] : ﴿ **وجعلنا اللّيـل والنّهار آيتين فمحونا آية اللّيل وجعلنا آية النّهار مبصرةً لتبتغوا فضلاً من ربّكم ولتعلموا عدد السّنين والحساب ، وكلّ شيءٍ فصّلناه تفصيلاً** ﴾ .

وإنّما تقدّم التّـذكّر على الشّكـر في قولـه تعالى : ﴿ **لمن أراد أن يـذّكّر أو أراد شكـوراً** ﴾ لأنّ هذا التّـرتيب الـطّبيعيّ للعمليّتين . يكـون الشّكر للّه تعالى بعبادته وحده لا شريك له بعد تأمّل هذه النّعم وتـدبُّرهـا وتذكّر اللّه تعالى بسببها .

---

(١) انظر هنا البحر المحيط ، ٦/٥١١ .
(٢) آية ، ١٠ ، ١١ .
(٣) الإسراء ، ١٢ .

وحيث إنّ الشّكر يمثّل الغاية من التذكّر ، ولا يقوم بالشّكر إلاّ المنصف الّذي ألقى السّمع وهو شهيد ، فما هي الصّفات الّتي ينبغي أن يتجمّل بها العبد الشّكور لمولاه والّتي ترشّحه هو وأمثاله من عباد اللّه تعالى أن يضافوا إلى الرّحمن إضافة تشريف وتفضّل فيقال عباد الرّحمن ؟ الجواب نتبيّنه في القسم الأخير من السّورة الكريمة .

القسم الخامس

عباد الرّحمن

نصّت الآيــة الكـريمــة الأولى من السّـورة على إحــدى مهمتي الرّسول الكريم العظيمتين ، قال تعالى : ﴿ **تبـارك الّذي نـزّل الفرقـان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾ وفي ذلك إيذانٌ بأنّ الجزء الأكبر من السّـورة سيسير بعـد ذلك في ضـوء صفـة الإنـذار هـذه ، ومن ثمّ كـان الحديث عن الجنّة وأصحابها محدوداً ، وبما أنّ الهدف من الإنذار هـو حمل الضّالّين عن سواء السّبيل على العودة إلى الصّراط المستقيم ، لذا كان القسم الأخير من السّورة متعلّقاً بهذا الهدف الأبعد وممثّلاً له بأكثـر من سواه ، وذلك في هيئة الحديث عن عباد الرّحمن وذكر صفاتهم .

وقد كان المنعطف الواضح الّذي بـدأت عنده الآيـات تتحوّل الى هـذه الـوجهـة ، متمثّـلاً في الآيـة الكـريمـة التي جمعت بين المهمّتين العـظيمتين للرّسول الكـريم . قال تعـالى : ﴿ **وما أرسلنـاك إلاّ مبشّـراً ونذيراً** ﴾ . وفي الآيات التّالية لهذه الآية ، جاءت لفظة الرّحمن بالذّات مرّاتٍ ثلاثاً ، وليس ثمّة اسمٌ آخر من أسماء اللّه تعالى الحُسْنى جاء في مثل هذا العدد . يضاف إلى ذلك أنّ القسم الرّابع يتعامل في جملته مع الـرّاشدين الّـذي ينتظر منهم أن يتـذّكـروا وأن يشكـروا للّه تعـالى على

جليل نعمه بعبادته عزّ وجلّ وحده لا شريك له . وكلُّ هذه الأسباب هيّأت لتحوّل الحديث إلى عباد الرّحمن ، الّذين أضيفوا إليه عزّ وجلّ إضافة تشريف وتعظيم .

وحينما ننعم النّظر في هذا القسم الأخير من سورة الفرقان الّذي يتحدّث عن عباد الرّحمن ، نستطيع أن نفهم أنّه يتحدّث عن تلك الثّمرة اليانعة والنتيجة الحسنة للجهاد الطّويل بين الحقّ والباطل ، الإيمان والكفر ، التّوحيد والإشراك مع الله تعالى غيره في العبادة . إنّ النّتيجة ، بإذنه تعالى ، سوف تتمثّل أخيراً في انتصار الحقّ ، حتّى وإن كانت للباطل أوّل الأمر صولاتٌ وجولات ، كما هو الحال بشأن كفّار مكة آنذاك . وفي هذا تسلية للمصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم وتسرية عنه . وقد صدق اللّه تعالى وعده فجاء الحقّ وزهق الباطل ، إنّ الباطل كان زهوقاً . وها نحن أولاء أمام مجموعةٍ من صفات هذه الثّمرة الحسنة والنّتيجة الطّيّبة المتمثّلة في هؤلاء العباد الّذين استحقّوا ، لأعمالهم الصّالحة الّتي وفقهم اللّه تعالى للقيام بها ، أن يضافوا إلى الرّحمن ، في كتاب اللّه العزيز ، مَنّا منه تعالى وفضلاً ، تشريفاً لهم وتعظيماً .

وبتأمّلنا لهذه المجموعة من الصّفات ، نستطيع أن نفهم بداهةً أنّها تدلّ على ما وراءها من صفاتٍ طيّبة لهؤلاء العباد ، كلّها مستمدٌّ من كتاب اللّه تعالى العزيز وسنة رسوله الحبيب . ويتعلّق بعض هذه الصفات المذكورة بالعبادات ، وبعضها بالمعاملات وبعضها بالسّلوك . وواضحٌ أنّ هذه الصّفات كلّها داخلةٌ في العبادة ، بمفهومها الواسع في الإسلام . قال عزّ من قائل[1] : ﴿ **قل إن كنتم تحبّون اللّه فاتّبعوني**

---

(١) سورة آل عمران ، ٣١ .

يحببكم اللّه ويغفر لكم ذنوبكم واللّه غفورٌ رحيم ﴾ وقال[1] : ﴿ لقد كان لكم في رسول اللّه أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو اللّه واليوم الآخر وذكر اللّه كثيراً ﴾ . وقد سئلت السّيّدة عائشة رضي اللّه تعالى عن خلق الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه وسلم فقالت : كان خلقه القرآن[2] .

إنّ أولى آيات القسم تتحدث عن صفتين من صفات عباد الرّحمن ظاهرتين وغير قابلتين بطبعهما للخفاء . وهاتان الصّفتان هما طريقتا المشي والكلام . وإنّما ابتدأ الحديث بهاتين الصِّفتين ، لأنّهما الدّليلان القابلان لأن يتبيّنهما بسبب ظهورهما وتميزهما كلّ النّاس ، ولأنّهما الثّمرة الطبيعيّة الظّاهرة والنّتيجة المنطقيّة الحسنة للكثير والكثير من المجاهدة الرّوحيّة والبدنيّة والصّبر على الأوامر وعن النّواهي . وقد أمكن لعباد الرّحمن هؤلاء أن يصلوا إلى هذه الدّرجة الرّفيعة العالية من كمال الظّاهر الدّالّ على كمال الباطن عن طريق إقبالهم الكلّي على اللّه تعالى والتّوجّه بالعبادة إليه وحده لا شريك له . ورغم اجتهادهم في العبادة هم متأسّون في التّواضع والحذر والحزم بسيّد الخلق صلّى اللّه عليه وسلّم الّذي صرّح بأنّه إنّما يدخل الجنّة إذا تغمّده اللّه تعالى برحمته وليس بعمله ، وهو الّذي غفر اللّه تعالى له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر . ولهذا نجد هؤلاء العباد مشفقين ألاّ يتقبّل اللّه تعالى منهم صالح الأعمال ، بل إنّهم مشفقون كلّ الإشفاق من عذاب جهنّم الّتي آمنوا بها جزءاً من إيمانهم بالغيب . لهذا هم يتحدّثون عن عذابها في لهجة العارف بها لما وصل إليهم من معلوماتٍ أكيدةٍ عنها .

وإذا تساءلنا عن خلق عباد الرّحمن أو سلوكهم من النّاحية

---

(1) سورة الأحزاب ، ٢١ .

(2) انظر مثلا تفسير ابن كثير ٤٠٢/٤ .

الاقتصاديّة ، تبيّنا أنّهم خير مثالٍ للأمّة الّتي أراد اللّه تعالى لها أن تكون أمّةً وسطاً ، إنّهم لا يسرفون ولا يقترون .

ثمّ نصادف للمرّة الأولى في آيات هذا القسم مجموعة من الصّفات المنفيّة عن عباد الرّحمن هؤلاء . وهذا دليلٌ على أهمّيّة هذه الصّفات المنفيّة وخطورتها وضرورة أخذ كلّ العباد حذرهم منها . وكيف لا يكون الأمر كذلك وإنّ أولي الصّفات تَعْني ضرورة سلامة العقيدة ، بعبادة اللّه تعالى وحده لا شريك له ، وهذا الهدف هو الّذي من أجله خلق اللّه تعالى الجنّ والإنس . وإنّ ثانية الصّفات تعني أمن المجتمع واستقراره ؟ وهما من أهمّ أسرار سعادته . ويتمّ ذلك بعدم قتل النّفس الّتي حرّم اللّه وبإقامة حدود اللّه تعالى . وإنّ ثالثة الصّفات التي تنهي عن ارتكاب جريمة الزّنى ، تَعْني نظافة المجتمع وطهره وأمن أفراده على الأعراض والذّرّيّة وتماسك الأسرة والمجتمع . وليس لهذه النّعم من ثمن . وإنّ نفي الآية الكريمة صفة الإشراك باللّه تعالى في العبادة سواه ، عن هؤلاء العباد ، إنّما هو دعوةٌ حارّةٌ لتوحيد اللّه تعالى ، ودليلٌ على عظم ذنب المشرك ، لدرجة أنّ من مات على الشّرك لن يغفر اللّه تعالى له كما جاء في القرآن الكريم .

وقد تلا ذلك النّهي عن شهادة الزّور عن طريق نفي هذه الصّفة السّيّئة عن عباد الرّحمن . فواجب كلّ العباد أن يترفّعوا عن شهادة الزّور ، لما فيها من إضاعة للحقوق وتثبيت لقواعد الظّلم . وإنّ مجيء النّهي عن شهادة الزّور إثر النّهي عن الذّنوب الثلاثة الكبار ، دليلٌ على عظم هذا الذّنب أيضاً .

ومن صفات عباد الرّحمن أيضاً أنّهم إذا مرّوا باللّغو مرّوا كراماً . وهذه الصّفة الحسنة تأخذ بسبب من ثاني صفات عباد الرحمن الّذين

وصفوا بأنّهم إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، ومن صفاتهم أيضاً أنّهم حريصون على أن يضيفوا إلى حصيلتهم الطّيّبة كلّ خير يرشدون إليه ويدلّون عليه ، ومن ثمّ هم يتعاطفون ، وهذا طبيعيّ ، مع الّذين يذكّرونهم بآيات اللّه تعالى ، فلا يملكون إلاّ أن يعضّوا على هذه الآيات بالنّواجذ ويخرّوا عليها بآذانٍ واعية وعيونٍ راعية . وهؤلاء العباد حريصون كلّ الحرص على أن يكثر عدد المؤمنين المتّقين سائلين اللّه تعالى أن يهبهم من أزواجهم وذرّيّاتهم قرّة أعين وأن يوفّقهم هم كي يكونوا للمتّقين إماماً . إنّهم يضربون المثل الحسن بأنفسهم أوّلاً ، سائلين اللّه تعالى الهداية والتوفيق لهم ولذويهم ولعباد اللّه تعالى المتّقين .

وقد ختمت السّورة الكريمة بالإشارة إلى جزاء عباد الرّحمن وجزاء المكذّبين ، وهي بذلك تأخذ بسبب من صفة الإنذار في الآية الكريمة الأولى ومن صفتي الإنذار والتبشير اللّتين جاءت الإشارة إليهما في القسم الرّابع من السّورة في قوله تعالى خطاباً لرسوله الكريم : « وما أرسلناك إلاّ مبشّراً ونذيراً » . والمعروف أنّ هذه الآية الكريمة بمثابة المنعطف الواضح لاتّجاه السّورة نحو التّبشير ونحو ذكر بعض من صفات عباد الرّحمن .

وهذه هي آيات القسم ، قال تعالى : ﴿ **وعباد الرّحمن الّذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً * والّذين يبيتون لربّهم سُجَّداً وقياماً * والّذين يقولون ربّنا اصرف عنّا عذاب جهنّم إنّ عذابها كان غراماً * إنّها ساءت مستقرّاً ومقاماً * والّذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً * والّذين لا يدعون مع اللّه إلٰهاً آخر ولا يقتلون النّفس الّتي حرّم اللّه إلاّ بالحقّ ولا يزنون *

ومن يفعل ذلك يلق أثاماً * يضاعَفْ له العـذابُ يوم القيـامة ويخلد فيـه مهـاناً * إلاّ من تاب وآمن وعَمِـلَ عمـلاً صـالحـاً فـأولئـك يبدّل اللّـه سيّئاتهم حسنات * وكان اللّه غفوراً رحيماً * ومن تاب وعمـل صالحـاً فإنه يتوب إلى اللّه متابا * والّذين لا يشهـدون الزّور وإذا مـرّوا باللّغـو مـرّوا كرامـاً * والّذين إذا ذُكّـروا بآيـات ربّهم لم يخـرّوا عليهـا صُمّـاً وعمياناً * والّذين يقولـون ربّنا هب لنـا من أزواجنا وذرّيّـاتنا قـرّة أعين واجعلنا للمتّقين إماما * أولئك يُجْزون الغُرْفة بما صبـروا ويُلقّون فيهـا تحيّة وسلاما * خالدين فيها حسنت مستقـرّاً ومقامـا * قل مـا يعبؤ بكم ربّي لولا دعاؤكم فقد كذّبتم فسوف يكون لزاماً ﴾ .

عباد الرحمن يمشون هوناً :

قال تعالى : ﴿ **وعبـاد الرّحمن الّـذين يمشون على الأرض هـونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً** ﴾ ونودّ الإشارة ابتـداءً إلى أنّ لفظة عبـاد « مبتـدأ » واسم المـوصـول « الّـذين » خبـره . ويـلاحظ أنّ الآيـة الكريمة تتحدّث عن مظهرين من صفات عبـاد الرّحمن مـرتبطين بشيئين ظاهرين بطبعهما وغير قابلين للخفاء . المشي والكلام .

ولمـاذا ابتدأ الحـديث عن عبـاد الـرّحمن بـذكـر هـاتين الصفتين الـظّاهـرتين بـالـذّات ؟ لأنّهمـا الـدّليـلان القـابـلان لأن يتبيّنهمـا بسبب ظهورهما وتميّزهما كلّ العباد ، ولأنّهما الثّمرة الطبيعيّة الظّاهرة والنتيجـة المنـطقيّـة الحسنـة للكثيـر والكثيـر من المجـاهـدة الـرّوحيـة والبـدنيّـة والامتثـال للأوامـر واجتناب النّـواهي . وإذا كانت الثمـرة أو النتيجة قـد تجلّت في العـديد من المجـالات في طمأنينـة النّفس ، وهـدوء البـال، وراحة الضمير ، وإشراقة المحيّا ، وخفض الجانب ، وحسن السّلوك ، ونظافة التّعامل مع الآخرين، الخ . فإنّ الحالتين اللّتين اختارتهما الآية

الكـريمة تعتبـران المظهـرين الخارجيّين ، الغـاية في الدّلالـة ، في نـظر الجميـع وبـلا استثنــاء ، على أنّ عبـاد الـرّحمن قمّـة المصلحين في الأرض .

أمّا المظهر الأوّل ، وهو طريقة المشي ، فـإنّه محـلّ احترام كـافّة العباد ، لأنّه بالإضافة إلى كونـه ثمرة كفـاح هؤلاء العباد الـطّويل ابتغـاء مرضاة اللّه تعالى ، هو يـدل على تمثيل أصحابه للبساطـة والفِطرة ، وابتعـادهم عن التّصنُّع والاختيال ، والفـرح أشراً والمـرح بطراً ، وتعلّقهم بجـدّ الأمور ومـعاليها ، وابتعـادهم عن تافهها وسفسافهـا . لذا تـراهم يمشون على الأرض هيّنين ليّنين ، تحدوهم نواياهم الطيّبة وترسم طـريقهم رغبتهم الأكيـدة في عدم إضاعة ذرّةٍ من الـوقت والجهد ، وتجـذبهم أهـدافهم السّامية ، إنّ القول في الآية الكريمة : ﴿ **على الأرض هَوْناً** ﴾ يشير إلى حرص هؤلاء العباد على الوقت والجهد ، وإلى تواضـع القـوم وتمثيلهم للفطرة .

ونستـطيع أن نفهم دور حـرف الجرّ « على » هنـا إذا تحـوّلنـا إلى حرف الجرّ الآخر « في » الّذي استعمل في آية سـورة الإسراء[(١)] إشارةً إلى المختـالين الفخـورين . قـال تعـالى : ﴿ **ولا تمش في الأرض مرحاً * إنّك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً** ﴾ إنّ حـرف الجرّ « في » يدلّ على رغبة هؤلاء المختالين في المشي لذات المشي ، دون أيّ هدف ، ولهذا تكاد تراهم في كلّ مكان . أمّـا حرف الجـرّ « على » بشأن عباد الـرّحمن فإنّـه قادرٌ على الدّلالة بأنّ هؤلاء العباد يكتفـون من المشي الهيّن بمـا يـوصلهم من أقصـر طـريقٍ إلى غـايـاتهم السّـاميـة وأهـدافهم النبيلة . ونستطيـع أن نفهم دور الجارّ والمجـرورو والحال :

---

(١) آية ، ٣٧ .

« على الأرض هـوناً » في الـدّلالة على تـواضع القـوم وتمثيلهم للفـطرة والبسـاطة . وكي يبـدو كلّ ذلـك واضحاً جليّـاً ، لنتحوّل إلى عجـز آية سـورة الإسراء الّـذي يسعى إلى إعـادة المختـال إلى جـادّة الصّـواب : ﴿ **إنّك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً** ﴾ إنّه كما لو كان يقـول للمختال ببساطـة : إنك حينمـا ترجم الأرض بعقبيـك ، إحساسـاً منك بثقـل وزنك وعلوّ قيمتـك ، فإنّ الأرض ليست بـالأداة الـطيّعـة لنفسـك الأمّـارة بالسّـوء ، وبالتّـالي أنت لن تُحْـدث فيهـا من أثـرٍ بعقبيـك وراء قدرتك المحدودة الهيّنة ، على الرّغم من أنّ نفسك تقصـد من تعبيرهـا عن كبرها ، بِرَجْمِـكَ الأرض بعقبيك أن تخرق الأرض دون سـائر خلق اللّه تعالى . وكما لـو كان يقـول له أيضـاً : إنّك حينمـا يأخـذك الزّهـو وتنتشي بالغرور ويستبدّ بك التّعالي وتعبّر عن كلّ ذلك في تصنّعك المشي السّريع ، معتمداً على مقدّمة قدميـك ، بل على رؤوس الأصـابع ، بـل إنّـك تتمنّى لو أمكنـك أن تعتمد في مشيـك على إصبع واحـدة من كلّ قدم ، تمهيداً لأن تطير اختيـالاً على رؤوس العباد ، فـإنّك ستـظلّ رغم كلّ هذه التّصرّفات والمحاولات والأمنيات مشدوداً إلى هذه الأرض الّتي أنت منها أوّلاً وإليها أخيـراً . إنّك لن تستـطيع أن تتجـاوز الطّول الّـذي أوجدك اللّه تعالى عليه لا عن طريق التّمـدّد الّذي تتمنّى ولا عن طـريق الطّيران الّذي به تحلم بـالرّغم من أنّـك تحلم كبراً وتعـالياً وغـطرسة أن تبلغ الجبال طولاً . ويلاحظ أنّ هذا النّوع الثّاني من المشي أقـرب إلى السّرعة من الأوّل .

فإذا عدنا إلى صفة المشي بالنّسبة لعباد الرّحمن ، تبيّن أنّهـا تدلّ على تواضع هؤلاء العباد وتمثيلهم للفطرة واستقامتهم وجدّهم ومعرفتهم حقيقة أنفسهم . إنّهم على علم بأنّهم من الأرض أساساً وعليها يعيشون

وإليها يعودون أخيراً . إنّهم يتأسّون بإمـامهم المصطفى صلّى اللّه عليـه وسلّم الّذي يعتبر نفسه في هذه الحياة بمنزلة المسافر الّذي اضـطرّ وقت القيلولة لأن يستظلّ تحت شجرة ساعة من نهار ثمّ مضى وتركها . لهـذا فإنّ علاقـة هؤلاء العباد بـالأرض الّتي جعلها اللّه تعـالى ذلولاً ، تكتفي بـالـلّازم ، ومن ذلـك المشي الّـذي لا يتمّ إلّا فـوقهـا . هـو مشيٌ هيّن لأغراضٍ مشروعةٍ وأهدافٍ سامية .

عباد الرّحمن يقولون سلاماً :

والمظهر الخارجي الثّاني الّـذي يُعْرف بـه عباد الـرّحمن ، والّذي صار سجيّة فيهم لا تكلّفاً ، طبْعاً لا تطبُّعاً ، هو لسانهم الرّطب ومنطقهم العذب . ومن أيّ الزّوايا تشير الآية الكريمة الى هذه الصّفـة النبيلة في عبـاد الرّحمن ؟ من أرفـع الزّوايـا جانبـاً ، وأصعبها مـرتقى ، وأعسرهـا منالاً . إنّها القمّة وكفى . قال تعالى : ﴿ **وعباد الرّحمن الّذين يمشـون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً** ﴾ .

وأوّل مـا نودّ تقـريـره في هـذا الجـانب هـو أنّ الإسـلام الحنيف يرحّب بأن يأخذ الإنسان حقّه من خصمه عن طريق الدّولة الّتي وظيفتهـا أن تـطبّق تعـاليم الـدّين الحنيف ، ومن أهمّهـا أن تحكم بـالعـدل بين النّاس . ومن حقّ صاحب الحقّ أن يتنازل برضاه عن حقّه الّذي ثبت له وأن يعفو ويصفح راجياً ثواب ربّـه . ولا شك أنّ الـدّين الحنيف يحثّ على العفـو والصّفح . وكثيـرٌ من النّاس ، يميلون بعـد المقـدرة إلى أن يعفوا . وهذه المرتبة تعتبـر أعلى من مرتبـة الانتصار بعـد الظُّلم ، على الرّغم من أنّ الإسلام يعطي صاحب الحقّ الحرّية الكـاملة في المطالبـة بحقّه وأخذه كاملاً غير منقوص . فلا شيء من غضاضةٍ عليه في ذلك . على أنّ أعلى المـراتب الّتي يفضّلها الـدّين الحنيف ويدعـو إليها ويثني

على أصحابها ، هي المرحلة الّتي يَصْبِرُ معها صاحب الحقّ ابتغاء مرضاة ربّه الأعلى ويعفو وهو قادرٌ على الانتصار لنفسه ممّن ظلمه . وإليك هذه الآيات من سورة الشّورى(١) في صفات المؤمنين . قال تعالى : ﴿ **فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدّنيا وما عند اللّه خيرٌ وأبقى للّذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكّلون . والّذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون . والّذين استجابوا لربّهم وأقاموا الصّلاة وأمرهم شورى بينهم وممّا رزقناهم ينفقون . والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون * وجزاء سيّئة سيّئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على اللّه ، إنّه لا يحبّ الظّالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنّما السّبيل على الّذين يظلمون النّاس ويبغون في الأرض بغير الحقّ ، أولئك لهم عذابٌ أليم * ولمن صبر وغفر إنّ ذلك لمن عزم الأمور** ﴾ . وإليك أيضاً هذه الآيات من سورة فصّلت(٢) قال تعالى : ﴿ **ولا تستوي الحسنة ولا السّيّئة ، إدْفع بالّتي هي أحسن فإذا الّذي بينك وبينه عداوةٌ كأنّه وليٌّ حميم * وما يلقاها إلاّ الّذين صبروا وما يلقاها إلاّ ذو حظّ عظيم * وإمّا ينزغنّك من الشّيطان نزغ فاستعذ باللّه ، إنّه هو السّميع العليم** ﴾ . وإنما حبّذ الإسلام هذه المرحلة العالية الرّفيعة ، لأنّها أكثر قدرة على إبراز التّراحم بين المؤمنين في أبهى الحلل . وقد قال عزّ من قائل في صفات المؤمنين بقيادة المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم(٣) : ﴿ **محمدٌ رسول اللّه ، والّذين معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم تراهم ركّعاً سُجّداً يبتغون فَضْلاً من اللّه ورضواناً ، سيماهم في وجوههم من أثر**

---

(١) آيات ، ٣٦ - ٤٣ .
(٢) آيات ، ٣٤ - ٣٦ .
(٣) سوّرة الفتح ، ٢٩ .

السّجود ، ذلك مثلهم في التّوراة ، ومثلهم الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزّرّاع ليغيظ بهم الكفّار * وعد اللّه الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً ﴾ .

ولنتأمّل الآن تصرّفات عباد الرّحمن حينما يخطىء في حقّهم واحدٌ من السّفهاء وهم قادرون على الانتصار لأنفسهم ، قال تعالى : ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً** ﴾ فلنتنبّه إلى أنّ الخطاب المؤلم موجّه من هؤلاء الجاهلين إلى هؤلاء العباد مباشرة ، دون واسطة ، وتصريحاً لا تلميحاً . إنّا ولا شكّ نكبّر أولئك الحلماء الّذين تصلهم معلومات متواترة لا يرقى إليها الشّكّ عن نيل بعض الجاهلين منهم ظُلْماً وعُدْواناً . فيتظاهرون بأنّهم لم يعلموا شيئاً ، وربّما كانت تلك المعلومات الأكيدة حافزاً لهم على مقابلة الإساءة بالإحسان ، بدلاً من الانتقام وهم عليه قادرون ، امتثالاً لنصائح القرآن الكريم والرّسول العظيم ، فقد روي عنه صلّى اللّه عليه وسلّم أنّه قال : إنّ اللّه تعالى أمرني أن أعفو عمّن ظلمني . كما أنّا ولا شكّ نُكبر أولئك الحلماء الّذين كلّما ضمّهم - مرغمين - بالجاهلين مجلسٌ أو حفل كانوا لهم غرضاً ، ففصّل أولئك الخاملون الجاهلون كلّ أنواع الهجوم والتّحامل على هيئة أولئك الحلماء الّذين لا ذنب لهم سوى أنّ اللّه تعالى أخذ بأيديهم ووهبهم قلوباً رحيمة من خشية اللّه ، وألسنة رطبة بذكره تعالى عذبة في معاملة النّاس ، فتألّفت على حبّهم القلوب المتنافرة لأنّ اللّه تعالى قد وضع لهم المحبّة في الأرض ، كما جاء في الحديث الشّريف أيضاً .

ولكن ما رأيك في أولئك الحلماء الّذين يخاطبهم الجاهلون وجهاً لوجه ، ظُلْماً وعدواناً ، بكلام جارح ، وهم مع ذلك يؤثرون أن

يتجاوزوا الانتقام الّذي هم له مطيقون ، أو الرّدّ المفحم الّذي هم له مجيدون وعليه قادرون ، إلى هيّن القول ولطيفه ، متنازلين عن حقوقهم ، راجين أن تسلم أعراضهم من اعتداءٍ جديد ، مضحّين بأعصابهم وصحّتهم ، حريصين على عدم ضياع ذرّة من وقتهم وجهدهم فيما لا طائل تحته ، راجين ثواب اللّه تعالى ، آملين أن ينقلب ذلك الجاهل يوماً من الأيام صديقاً ، بل وليّاً حميماً ، كما قال تعالى : ﴿ **ادْفع بالّتي هي أحسن فإذا الّذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليٌّ حميم** ﴾ إنّ الّذين يصلون الى هذه المرتبة الرّفيعة من السّموّ الخلقى والطّهر النّفسي ، هم عباد الرّحمن الّذين يحبّهم اللّه تعالى والّذين عناهم بقوله[1] : ﴿ **أذلّة على المؤمنين أعزّةٍ على الكافرين** ﴾ . وبقوله في الفرقان : ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً** ﴾ . ولا شكّ أنّ هذه هي الصّفة السّامية النّبيلة الّتي تشرئبّ إليها الأعناق وتتطاول إليها الأنفس ، والّتي لا يلقّاها إلاّ الّذين صبروا ولا يلقّاها إلاّ ذو حظّ عظيم . كما نصّ على ذلك القرآن الكريم . فهنيئاً لهؤلاء العباد هنيئاً .

إليك هذه الحادثة من الواقع . ضمّ مجلسٌ ذات ليلةٍ من ليالي رمضان المبارك مجموعة من الرّفاق ، الّذين اتّجه حديثهم وجهةً تتعلّق بشؤون هذا الشّهر الكريم ، فطلب واحدٌ من الحاضرين تبيين رأي الشّارع في مسألة بعينها ، فأجابه على ذلك واحدٌ من أكثر الحاضرين علاقة بأمثال هذه المسائل . وأراد آخر أن يضيف ما يوضّح رأي الشّارع فاستأذن في أن يُسْمَحَ له بأن يذكر حديثاً من صحيح البخاري . وقبل أن يذكر شيئاً من الحديث إذا بالمجيب يقاطعه في لهجة حادّة طالباً منه أن يترك الأمر لذوي الاختصاص ! وصعق المجلس لهول هذه الجراءة

---

(١) سورة المائدة ، ٥٤ .

وخيّم على الجميع سكونٌ مفاجىء ، وتوقّع البعض ـ كما صرّح أخيراً ـ أن تقابل الإساءة بمثلها . وكانت المفاجأة حينما كان ردّ المقاطع لمسكته : شكراً لك ، فأجابه قائلاً : عفواً !

وكظم الزّميل الّذي أُسْكت غيظه وقد تغيّرت ملامحه ، وتحامل على نفسه ، وابتعد قليلاً ، وأخرج مصحفاً صغيراً كان يحمله في جيبه واستمرّ يقرأ فيه .

وبعد أيّام ، وقد رضيت عن سلوك الرّجل ، الّذي كان قادراً وقتها على الانتصار لنفسه ، لتضمّن الحديث الّذي كان بودّه أن يسرد الرّدّ على السّائل ، قُدّر لي أن ألتقي به ، فشكرت له حسن صنيعه تلك اللّيلة الكريمة ، وكظمه غيظه ، وانتصاره على نفسه . فأجابني بما يفيد أنّه ظلّ أوّل الأمر يتألّم لما حدث ، ويحاول بكلّ الوسائل أن يكبح من جماح نفسه الّتي تتطلّع لأن تنتصر بعد ظلمها . ولمّا كان اللّه تعالى قد وفّقه عند الصّدمة الأولى لأن يصبر ، فقد أخذ الشّعور بالفرح للانتصار على نفسه الّتي كظم غيظها يتقلّب في مراحل شبيهةٍ بالمراحل الّتي يتقلّب فيها الجنين حتّى اكتمل وشبّ وقضى بالكليّة على ذلك الألم الّذي لازمه ليالي وأيّاماً ، بسبب طريقة إسكات زميله الفظّة له .

واللّطيف في هذه الحادثة ، وهنا تكمن العبرة ، أنّ الأمور بين الزّميلين سُرْعان ما عادت إلى مجراها الطّبيعيّ . فقد حملت طريقة الدّفع بالّتي هي أحسن ، الطّرف الآخر على الرّجوع إلى الحقّ والحرص الشّديد على استرضاء زميله وكسب ودّه . وكلّ ذلك بحمد اللّه تعالى قد كان . وصدق تعالى إذ يقول في محكم كتابه : ﴿ **اِدْفَعْ بالّتي هي أحسن فإذا الّذي بينك وبينه عداوةٌ كأنّه وليٌّ حميم * وما**

يلقاها إلاّ الّذين صبروا وما يلقّاها إلاّ ذو حظٍّ عظيم ﴾ .

عباد الرّحمن يبيتون سجّداً وقياماً :

وكيف أمكن لعباد الرّحمن هؤلاء أن يصلوا إلى هذه الدّرجة الرّفيعة العالية من كمال الظّاهر الدّالّ على كمال الباطن ؟ عن طريق إقبالهم الكُلّيّ على اللّه تعالى والتّوجه إليه بالعبادة وحده لا شريك له . قال تعالى : ﴿ **والّذين يبيتون لربّهم سجّداً وقياماً** ﴾ .

وواضح أنّ الآية الكريمة تختار من مظاهر العبادة عماد الدّين وهو الصّلاة . وتختار من هذا العماد أكثر جوانبه دلالة على توجّه هؤلاء العباد إليه تعالى وحده بالعبادة ، ومن ثمّ هي تشير إلى ما يتقرّبون به إليه عزّ وجلّ من نوافل الصّلاة ، وفي أيّ الأوقات ؟ في الوقت الّذي يكون فيه النّاس نياماً . إنّهم ينشطون آنذاك في خلوتهم للعبادة ، بعيدين عن الرّياء والسُّمعة ، مدفوعين بحرارة الإيمان وبرد اليقين ، متأسّين بالرّسول الكريم الّذي كان يصلّي حتّى تتورّم قدماه وهو الّذي غفر اللّه تعالى له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر . وحينما يسأل في ذلك كان يقول : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ وقد أنزل اللّه تعالى في حقه قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ **طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلاّ تذكرةً لمن يخشى** ﴾ وقال عزّ من قائل مخاطباً رسوله الكريم[2] : ﴿ **يا أيّها المزّمّل ، قم اللّيل إلاّ قليلاً * نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً * إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً * إنّ ناشئة اللّيل هي أشدّ وطئاً وأقوم قيلاً** ﴾ . وقال تعالى[3] : ﴿ **إنّ ربّك يعلم أنّك تقوم**

---

(١) سورة طه ، ١ ـ ٣ .

(٢) سورة المزّمّل ، ١ ـ ٦ .

(٣) سورة المزّمّل ، ٢٠ .

أدنى من ثلثي اللّيل ونصفه وثلثه وطائفةٌ من الّذين معك ﴾ وهؤلاء العباد يطمعون أن يشملهم قوله تعالى[1] : عن المؤمنين بآياته عزّ وجلّ : **﴿ إنّما يؤمن بآياتنا الّذين إذا ذكّروا بها خرّوا سجّداً وسبّحوا بحمد ربّهم وهم لا يستكبرون * تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفاً وطمعاً وممّا رزقناهم ينفقون ﴾** وقوله تعالى في صفات المتقين[2] : **﴿ إنّ المتّقين في جنّات وعيون * آخذين ما آتاهم ربّهم * إنّهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلاً من اللّيل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون * وفي أموالهم حقٌّ للسّائل والمحروم ﴾** وقوله تعالى عن عباد الرّحمن في الفرقان : **﴿ والّذين يبيتون لربّهم سجدا وقياماً ﴾** .

وواضحٌ أنّ القول : « لربّهم » يَعْني أنّ هؤلاء العباد إنّما يقومون اللّيل ابتغاء وجه ربّهم الأعلى وحده لا شريك له ، ولهذا لا يكاد يعلم مخلوق عمّا يقومون به في جوف اللّيل من صلاة وخشوع . وهذه الحقائق مؤكّدة أنّ مشيهم على الأرض هوناً وقولهم للجاهلين سلاماً طبع فيهم وسجيّة ، وهما بطبعهما صفتان ظاهرتان . وإنّ القول : « سُجّداً وقياماً » يشير إلى عنصري الصّلاة البارزين ، القيام دليل الاجتهاد في العبادة ، والسّجود دليل الخضوع والخشوع ، بل فرط الاجتهاد والخشوع ، فلا يكاد هؤلاء العباد ينتهون من السّجود ، الّذي أجادوا وأطالوا ، حتّى يتبعوه بقيامٍ آخر ، موصولٍ أو مستأنف بعد التّسليم .

وهل هؤلاء العباد واثقون من أنّ هذه الأعمال الصّالحة قد تقبّلها

---

(١) سورة السّجدة ، ١٥ ، ١٦ .
(٢) سورة الذّاريات ، ١٥ ـ ١٩ .